جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

بلاغة النظم القرآنى
فى آيات الشفاء

الدكتور
محمد أحمد أبو زيد
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
بكلية اللغة العربية بجرجا

العدد السابع عشر
للعام ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م
الجزء الأول

مقدمـــــــة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على مَنْ أرسله ربه رحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين سبيله إلى يوم الدين ...

وبعـــد ؛؛؛

فإن الصحة نعمة من نعم الله تعالى تستوجب الشكر من العباد عليها ، فالمؤمن إذا أنعم الله عليه بالصحة فعافاه وجب عليه أن يشكر ربه ، وإذا مرض التمس الدواء وسأل الله الشفاء ، فالله هو الشافي ، والقلوب تصدأ وتمرض ، والأبدان تسقم وتضعف ، والله تعالى يشفي القلوب كما يشفي الأبدان ، وقد تحدث القرآن عن الشفاء في ستة مواضع[1] ثلاثة منها جاء الحديث فيها عن شفاء القرآن لقلوب المؤمنين ، وهي قوله تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ وقوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

---

(١) قال الألوسى : (وآيات الشفاء ست ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ التوبة ١٤ ﴿ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ يونس ٥٧ ﴿ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ ﴾ النحل ٦٩ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الإسراء ٨٢ ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ الشعراء ٨٠ ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء﴾ فصلت ٤٤) .

[تفسير الألوسى ١٤٥/١٥ ط دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان ، والبرهان للزركشى ، تح/ محمد أبو الفضل ٤٣٦/١ ، المكتبة العصرية – بيروت].

وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ... ﴾ وقوله ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء ﴾ .

وموضعان جاء الحديث فيهما عن الشفاء مسنداً إلى الله تعالى ، أحدهما يفيد شفاء الله صدور المؤمنين ، وهو قوله ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ والآخر يفيد شفاء الله سقم المؤمنين ، وذلك على لسان إبراهيم – عليه السلام – في قوله ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ .

وموضع واحد جاء الحديث فيه عن شفاء ما يخرج من بطون النحل من شراب وهو العسل للناس ، قال تعالى ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِّلنَّاسِ ﴾ .

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في ثلاثة مباحث على النحو التالي .

- **المبحث الأول** : شفاء الله تعالى للمؤمنين .
- **المبحث الثاني** : شفاء القرآن لقلوب المؤمنين .
- **المبحث الثالث** : شفاء ما يخرج من بطون النحل من شراب للناس بإذن الله

وتعقبها الخاتمة والفهارس ، وتقوم الدراسة على عرض هذه الآيات في سياقها من خلال منهج تحليلي ملائم ، نستطيع من خلاله رؤية النص القرآني رؤية بلاغية ، تتسم بالشمول والوضوح والدقة.

وأسأل الله التوفيق والسداد ، وأن يجعل هذا العمـــل خالصـــاً لوجهه الكريم ، إنه ولى ذلك والقادر عليه .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

المبحث الأول

شفاء الله تعالى للمؤمنين

الموضع الأول : قوله تعالى ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة ١٤] .

نزلت هذه الآية ضمن آيات تحث المسلمين على قتال الكفار من قريش وأتباعها ، بعد أن نقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ حين أعانوا بني بكر على خزاعة ، وأمدوهم بالعدة والرجال ، وكانت خزاعة قد دخلت بموجب صلح الحديبية في عهد رسول الله ﷺ ، ودخل بنو بكر في عهد قريش[٢] ، والمعنى : قاتلوا أيها المؤمنون بالله ورسوله هؤلاء المشركين الذين نكثوا أيمانهم ، ونقضوا عهودهم معكم ، ولا تخافوهم ، فإن الله سيعذبهم على أيديكم ، ويذلهم بالأسر لكم ، وينصركم عليهم حتى لا تقوم لهم قائمة ، ويشف صدور أناس منكم نالوا من أذاهم كثيراً لم يكن في وسعهم أو وسعكم دفعه ، إنه سوف يشفي هذه النفوس من غيظها المكظوم بانتصار الحق كاملاً ، وهزيمة الباطل [٣] .

ويلاحظ تنوع أساليب القرآن في تهييج المخاطبين من المؤمنين لقتال الكفار بين ذكر الأسباب ، وبيان الغاية من القتال ،

---

(٢) ينظر: تفسير الطبري ١١٧/١٠ ، ط دار الفكر – بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، تفسير القرطبي ٤٣٥/٤ ، ط دار الحديث ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .

(٣) ينظر : تفسير القطان ١٢٣/٢ [الحاسب الآلى] .

وقد سُبقت الآية بذكر الأسباب [٤] ، وتفردت هى بذكر غاياته ، فالآية تحمل حثاً وتحريضاً للمؤمنين على قتال أعدائهم من الكفار ، وفيها بيان لحكمته تعالى فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك أعداء الدين بأمر من عنده ، وقد صُدِّرت بهذا الأمر (قاتلوهم) بعد أن تقرر قبلها – على أتم وجه – أفعال الكفرة المقتضية لقتالهم وكسر شوكتهم ، وهذا الأمر فيه تهييج وإغراء للمؤمنين على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم ، المناوئين للدعوة الذين هموا بإخراج الرسول ﷺ من مكة ، وهذا الأمر عام فى المؤمنين كلهم (وإنما شرع الله تعالى الجهاد فى الوقت الأليق به ، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً فلو أمر المسلمون وهم أقل عدداً بقتال الباغين لشق عليهم ، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ وكانوا نيفاً وثمانين ، قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادى –يعنون أهل منى– ليالى منى فنقتلهم؟ فقالﷺ:إنى لم أومر بهذا)[٥] .

والأمر هنا كما هو عام للمؤمنين ، فهو أيضاً عام فى جميع المشركين ، فى كل مكان حِلّ أو حرم ، ويلزم منه عموم الأزمان فى الأشهر الحرم وغيرها، لأنه سبحانه أمرهم بالقتال دون قيد أو شرط، فلم يخص الأمر بزمان ولا مكان ، وهذا الحكم ناسخ لقوله ﴿ وَقَاتِلُواْ فِي

---

(٤) حيث قال ﴿ أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة ١٣] .

(٥) تفسير ابن كثير ٢٢٥/٣ مكتبة التراث الإسلامى ، حلب ١٩٨٠م .

سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ [٦] ، ومؤكد بقوله ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾[٧]، وقوله ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾[٨].

ويلاحظ اختيار القرآن لصيغة فاعل (قاتلوهم) ، وسبيل فاعل أن يكون بين اثنين في الغالب[٩] ، كما يلاحظ أيضاً أن القتال هنا من المقاتلة ، وهي المحاربة بين اثنين[١٠] وعبر بـ(قاتلوهم) دون اقتلوهم ؛ لأن الثاني يأتي في الأمر بالقتل ابتداء ، أما الأول فيأتي للرد على القتل ، بدليل قوله ﴿ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [١١] فالأمر (قاتلوهم) جاء رداً على قتال الكفار لهم ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن صيغة فاعل توحي بوجود مشقة وشدة مقاومة ، ينال فيها كل طرف من الآخر ، قال تعالى ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ [١٢] وقال ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾[١٣]

---

(٦) ، (٧) ، (٨) الآيات على الترتيب : البقرة ١٩٠ ، التوبة من الآية ٥ ، البقرة ١٩٣ .

(٩) وقد يرد من الواحد كـ سافرت ، وطارقت النعل ، وفي حديث المار بين يدى المصلي (قاتله فإنه شيطان) أي ادفعه عن قبلتك

(١٠) وقد يأتي بمعنى اللعن كقوله تعالى ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ وقوله ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ ويأتي بمعنى الدعاء بدفع الشر ومنه ما جاء في حديث السقيفة:قتل الله سعداً فإنه صاحب فتنة وشر، أي دفع الله شره

(١١) ، (١٢) ، (١٣) الآيات على الترتيب : التوبة ١٣ ، آل عمران ١٤٠ ، النساء ١٠٤ .

وهذا كله يقتضي الصبر وتحمل المشاق ، ولذلك أعقبه بذكر الغاية منه دفعاً للصبر وتحمل المشاق ، وضمير النصب في (قاتلوهم) عائد على (أئمة الكفر) الذين وصفهم بقوله ﴿ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ... ﴾ [١٤] .

وعندما أمر الله المؤمنين بمقاتلة الكفار ذكر لهم منافع خمسة لهذه المقاتلة (كلها ترجع إلى تسكين الدواعي الناشئة من القوة الغضبية ، وهي التشفى ودرك الثأر وإزالة الغيظ ، ولم يذكر فيها وجدان الأموال والفوز بالمطاعم والمشارب ، وذلك لأن العرب قوم جبلوا على الحمية والأنفة ، فرغبهم في هذه المعاني لكونها لائقة بطباعهم)[١٥] .

الأولى : (يعذبهم الله) وهو جواب الأمر ، وهو جزم بمعنى المجازاة ، والتقدير : إن تقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ... وتعذيبهم بأيدي المؤمنين هو في الدنيا بالقتل والأسر والنهب ، والتعبير بالمضارع جاء ليطابق الشرط المقدر ، فكلما كانت المقاتلة كان التعذيب ، فمع كل قتال يصيبهم عذاب الله ، أما إن ترك المسلمون القتال وخملوا سلطهم الله عليهم ، وابتلاهم بهم ، وإسناد الفعل إلى الله (يعذبهم الله) من إسناد الحقيقة ، فلم يسند إلى سببه ، وإنما أسند إلى فاعله الحقيقي ، على حد قوله تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ

([١٤]) التوبة ١٣ .

([١٥]) تفسير الرازي١٦/٤ المطبعة البهية ، ط أولى ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (١٦) ، وهذا الإسناد يوحي بعظمة هذا العذاب وشدته بما يتناسب مع قوة فاعله ، وفي الأسلوب دلالة على سخط الله وغضبه عليهم ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا يمنع هذا الإسناد أن يكون هناك عذاب بأيدي المؤمنين ، ولكنه التحريض والحث على الاستجابة لأمره تعالى ، وإنما كان تعذيب الله لهم لرفضهم التكليف الصادر منه إليهم بعبادته ، وترك عبادة غيره ، وفي جعل أيدى المسلمين آلة لهذا التعذيب تشريف لهم وإذلال لعدوهم ، وقوله (يعذبهم الله) لاينافي قوله ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ (١٧) لأن المراد بالعذاب في آية الأنفال الاستئصال ، بنحو صيحة أو خسف أو غيره وقد يعم غير المذنب ، فلا منافاة بين الآيتين (١٨) وإسناد التعذيب إلى الله ؛ لأنه مخلوق له (١٩) وتعليقه بالأيدي لأنه كسب لها ، وكذا إذا وقع تعذيب المؤمنين بأيدي الكفرة ، فإن الله قد عذبهم بأيدي الكفرة ، ولكن منعوا التعبير به لشفاعته ،

---

(١٦) ، (١٧) الآيات على الترتيب : محمد من الآية ٧ ، الأنفال من الآية ٣٣

(١٨) فعذاب الاستئصال يتعدى المذنب إلى غير المذنب فهو يعم الموافق والمخالف ، وعذاب القتل يقع بالمذنب المخالف ولا يتعداه إلى غيره [تفسير الخازن٢/٢٠٨،ط دار المعرفة – بيروت – لبنان] .

(١٩) قال الأشاعرة : في الآية دلالة على أن الذي يدخل في الوجود من الأفعال كلها من الله يظهرها على أيدي العباد .

كما لا يقال : يا خالق الخنزير والغائط ونحو ذلك مع أنه الخالق لها لا غيره [٢٠] .

الثانية : (ويخزهم) والإخزاء : الإذلال ، والخِزْى مصدر خَزَى يَخْزَى ، بمعنى ذلّ وهان بمرأى من الناس ، وأخزاه أذلّه على رءوس الأشهاد ، والمراد به هنا الأسر ، وقيل : ما نزل بهم من الذل والهوان ، حين شاهدوا أنفسهم مقهورين في أيدي المؤمنين ، وهو قريب من الأول ، أو هو هو ، وقيل : هو عذاب الآخرة [٢١] . وقيل معناه يذلهم على ذنوبهم ، يقال : خزى الرجل يخزي خزياً إذا ذلّ من حيث وقع فى عار، وأخزاه غيره، وخزى يخزى خزاية إذا استحيا[٢٢] . وقيل : يخزهم بالهزيمة وهم يتخايلون بالقوة [٢٣] . ونلحظ عطف هذه الجملة على ما قبلها بالواو لمشاركتها لها في الحكم الإعرابي ، وجاءت بصيغة المضارع ليتأتى التطابق مع الشرط ، فكلما حصل قتال تبعه خزي لأئمة الكفر ، وهذا أدعى وأقوى في الحض على القتال والحث عليه ، وفي إسناد الفعل إلى الضمير العائد على الله ما يوحي بعظمة هذا الإخزاء المستمدة من عظمة الفاعل ، وفيه تذكير بقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [٢٤] .

([٢٠]) هيمان الزاد إياضى ٤٤٨/٥ [الحاسب الآلى] .

([٢١]) تفسير النيسابورى ٥٠/١٠ ، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٣٥/١٠ ، ط الدار التونسية للنشر.

([٢٢]) المحرر الوجيز لابن عطية ١٤٣/٨ ، مكتبة ابن تيمية – القاهرة .

([٢٣]) في ظلال القرآن ١٦١٢/٣ ، ط ١٣ دار الشروق ١٤٠٧هـ .

([٢٤]) الحج من الآية ٣٨

الثالثة : ﴿ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ والنصر : حصول عاقبة القتال المرجوة ، والضمير في (عليهم) عائد على أئمة الكفر من قريش وحلفائها ، ونصر الله للمؤمنين عليهم بأن يمكنهم من رقابهم ، ويملكهم أموالهم ونساءهم ، ويجعل كلمتهم هي العليا ، وكلمة عدوهم السفلى ، ونلحظ مقابلة الجمع بالجمع في (ينصركم عليهم) ليفيد نصر جميع المؤمنين – وإن لم يمارس القتال إلا بعضهم – على جميع الكفار وإن لم يعاينه إلا بعضهم ، قال الألوسي : (أي يجعلكم جميعاً غالبين لهم أجمعين ، ولذلك أُخر كما قال بعض المحققين عن التعذيب والإخزاء) [٢٥] ولا يقال : إن حصول الخزي لهم يستلزم النصر عليهم ، فذكر النصر بعده يعد عبثاً (لأنه من المحتمل أن يحصل الخزي لهم من جهة المؤمنين ، إلا أن المؤمنين يحصل لهم آفة بسبب آخر ، فلما قال " وينصركم عليهم " دل على أنهم ينتفعون بهذا النصر والفتح والظفر) [٢٦] ويمكن أن يكون هذا من الطباق المؤكد للمعنى ، فإنَّ خزيَ الكافرين هو نصر للمؤمنين ، مع الدلالة على إفادة المعنى كاملاً غير منقوص ، فإن معنى الجملة الثانية ينفي الاحتمال الذي قد يتوهم من معنى الأولى ، وهو عدم نصر المؤمنين عليهم مع وقوع الخزي بالكافرين ، وهذا قريب من دلالة التأكيد في قوله ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [٢٧] فإنه قد يتبادر إلى الذهن حصول شيء من الإصلاح مع وقوع الفساد منهم ،

([٢٥]) تفسير الألوسي ٦١/١٠ .

([٢٦]) تفسير الرازي ٣/١٦ .

([٢٧]) النمل الآية ٤٨

فجاءت الجملة الثانية لتنفي هذا الوهم ، وتؤكد أنه لا يقع منهم إلا الفساد وفي قوله ﴿ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ وعد لهم بالنصر على أعدائهم إذا استجابوا للأمر (قاتلوهم) ، وهذا من شأنه أن يحرك هممهم للاستجابة للأمر ، وفيه أن الله تعالى يؤيد عباده الذين آمنوا به إيماناً حقاً بنصر من عنده ، ويكفيهم شر عدوهم ، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾[٢٨] ، وقال: ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢٩] ونلحظ أنه اكتفى بإسناد النصر إلى الضمير العائد إلى الله تعالى ، إذ لا يحسن إعادة ذكره صراحة إثر قريب، وأيضا للعلم به، لقوله تعالى﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ ﴾ [٣٠] وهذا الإسناد الحقيقى يوحي بعظمة هذا النصر لقوله ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ ﴾[٣١] ومبالغة في استنهاض الهمم ، وتقوية العزائم جاء التعبير بالمضارع ليفيد تجدد النصر بتجدد المقاتلة ، وقيد نصر المؤمنين بقوله (عليهم) أي على أئمة الكفر ، وهو من شأنه أن يحرك هممهم ويستثيرهم؛ لأنه الأمل الذي يداعبهم، ويرجونه من القتال.

الرابعة :﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ قرأ الجمهور بالياء رداً على اسم الله تعالى، أي يبرئ الله داء قلوب قوم مؤمنين مما كانوا

---

(٢٨) ، (٢٩) ، (٣٠) ، (٣١) الآيات على الترتيب غافر ٥١ ، الروم ٤٧ ، الأنفال ١٠ ، آل عمران الاية ١٦٠ .

ينالونه من الأذى منهم ، ومعلوم أن من طال تأذيه من خصمه ، ثم مكنه الله منه على أحسن الوجوه ، فإنه يعظم سروره به ، ويصير ذلك سبباً لقوة النفس وثبات العزيمة [٣٢] ، والتعبير بـ(يشف) يدل على أن غيظهم قد اشتد ، حتى صار تعلقهم بالنصر على أعدائهم كالمرض ، فشبه إزالة ما حصل في قلوب المؤمنين من فعل الكفرة بالنصر عليهم بإزالة المرض ، وهنا نلحظ التتابع في المعانى التي من شأنها تهييج المؤمنين وحثهم على قتال أئمة الكفر ، فإذا كان التشفي مما تتلهف إليه النفوس المؤمنة كان الإسراع إلى أسبابه أشد وأقوى ، وهو قتال هؤلاء ، وفي إسناد الشفاء إلى الضمير العائد إلى الله تعالى تعظيم لهذا الشفاء وإعلاء لقدره ، (وفيه أنه إذا وضع الشفاء في العسل بقيت تلك الخاصية فيه أبداً ، فإذا وضع الشفاء في الصدور فكيف لا يبقى أبدا) [٣٣]

وقرأ زيد بن على (ونشف) بالنون وهو التفات حسن ، (لأن الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد)[٣٤] والشفاء : زوال المرض ، ومعالجة زواله ، أطلق هنا استعارة لإزالة ما في النفوس من تعب الغيظ والإحساس بالظلم والقهر ، كما استعير ضده وهو المرض لما في النفوس من الخواطر الفاسدة في

([٣٢]) تفسير الطبري ١١٧/١٠ ، تفسير الرازي ٣/١٦ .

([٣٣]) تفسير النيسابوري ٥٠/١٠ .

([٣٤]) الكشاف للزمخشرى ١٠/١ ، ط دار عالم المعرفة .

قوله تعالى ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [٣٥] وفي إيقاع الشفاء على الصدور تعظيم لهذه الصدور ، وأنها جديرة بهذا الشفاء الواقع من الله تعالى ، وإضافة الصدور إلى(قوم مؤمنين) دون ضمير المخاطبين يدل على أن الذين يشفي الله صدورهم بنصر المؤمنين طائفة من المؤمنين المخاطبين بالقتال ، وهم أقوام كانت في صدورهم إحن على بعض المشركين الذين آذوهم وأعانوا عليهم ، ولكنهم كانوا محافظين على عهد النبي ﷺ فلا يستطيعون مخالفته ومجازاتهم على سوء صنيعهم ، وكانوا يؤدّون أن يؤذن لهم بقتالهم [٣٦] ، فإن فى قلوبهم من الحنق والغيظ عليهم ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما فى قلوبهم من الغم والهم – إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين لله ولرسوله ، ساعين فى إطفاء نور الله – وزوالاً للغيظ الذى فى قلوبهم ، وفى هذا دلالة على محبته تعالى لهؤلاء المؤمنين ، واعتنائه بأحوالهم ، حتى إنه جعل من جملة المقاصد الشرعية للقتال شفاء ما فى صدورهم وذهاب غيظهم [٣٧].

وفى وضع المظهر موضع المضمر فى (قوم مؤمنين) دون صدوركم ، ليصفهم بالإيمان وبطيب قلوبهم ، وليعلى من قدر هذه الطائفة ، وبيان منزلتها عند الله حتى خصها الله بالشفاء ، فالمراد بـ (قوم مؤمنين) هم خزاعة ، قاله مجاهد والسدى وعكرمة،

([٣٥]) البقرة من الآية ١٠

([٣٦]) ينظر: التحرير والتنوير ١٣٦/١٠ .

([٣٧]) تفسير السعدى ٣٣١/١ .

ووجه تخصيصهم أنهم الذين نقض فيهم العهد ، ونالتهم الحرب[٣٨]، ولا يبعد حمله على العموم ؛ لأن كل مؤمن يسر بقتل الكفار وهوانهم ، حتى مَنْ لم يصبه الأذى منهم ، فالمؤمنون كالجسد الواحد ، يتضررون بما يصيب أدناهم ، وأن كل ما يهدّ من الكفر هو شفاء من هم صدور المؤمنين ، وفى هذا دلالة (على كون الصحابة مؤمنين فى علم الله إيماناً حقيقياً ، لأنها تدل على أن قلوبهم كانت مملوءة من الغضب ، ومن الحمية لأجل الدين ، ومن الرغبة الشديدة فى علو دين الإسلام ، وهذه الأحوال لا تحصل إلا فى قلوب المؤمنين) [٣٩] ، ونلحظ أن جواب الأمر اشتمل على عدة جمل عطف بعضها على بعض ، وقد تضمنت هذه الجمل معانى عظيمة ، وهى مع تعددها وعظمتها جواب مترتب على أمر واحد (قاتلوهم) وفى هذا دليل واضح على أن هذه المقاتلة ليست بالأمر الهين ، ولذا فهى عند الله

---

(٣٨) حتى استنصر عمرو بن سالم الخزاعى بالنبى ﷺ قائلاً:

اللهم إنى ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا

إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

إلى أن قال :

وابعث جنود الله تأتى مددا فيهم رسول الله قد تجردا

فقال ﷺ: والله لأغزون قرشاً .... لانصرت إن لم أنصركم " [تفسير النيسابورى ٤٢/١٠ ، ٤٣ ، والكشاف ١٣٩/٢ ، وينظر: المحرر الوجيز ١٤٣/٨ ، ١٤٤] . وقال ابن عباس: هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة ، وأسلموا ، فلقوا من أهلها أذى كثيراً ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه ، فقال: (أبشروا فإن الفرج قريب) . [الكشاف ١٤٢/٢] .

(٣٩) تفسير الرازى ٤/١٦ .

بمكان حتى حظيت بهذه الغايات المترتبة عليها ، كما نلحظ الترقى فى المعانى من العموم إلى الخصوص ، فقوله ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ عام لجميع المؤمنين ، ثم جاء الخصوص فى قوله ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ .

الموضع الثانى: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء ٨٠] .

هذه الآية جاءت ضمن آيات متعددة ، هى فى مجموعها إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم ، إمام الحنفاء ، أمر الله فيها رسوله محمداً ﷺ أن يتلوها على قومه ؛ ليقتدوا به فى عبادته لله والتوكل عليه ، وخص هذا النبأ مع أن إبراهيم له أنباء كثيرة ؛ لأنه من أعجبها وأفضلها لتضمنه لرسالته ، ودعوته قومه ، ومحاجته إياهم ، وإبطاله لما هم عليه من عبادة غير الله ، قال تعالى:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً... ﴾ والذى يتدبر الآيات يجدها فى مجموعها تتفرع من سؤال إبراهيم (ما تعبدون ؟) وجوابهم المطنب (نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين) وتوالى الحوار المطنب من الطرفين ، وكأن الإطناب فى كل يتواءم مع ما فى داخل الفريقين ، فقوم إبراهيم يحاولون أن يثبتوا هذه العقيدة فى أنفسهم ، وإن اعترفوا أن معبودهم صنماً ، وإبراهيم يذكر الأدلة على وحدانية المعبود فى محاولة منه للوصول إلى النتيجة المرجوة إما أن يتبعوه ويعبدوا الله وحده ، أو يعلن هو براءته من الشرك ، وخص القرآن إبراهيم دون غيره ؛ لأنهم كانوا

يزعمون أنهم ورثته ، وأنهم يتبعون ديانته ، فأخبرهم أن إبراهيم كان يستنكر ما كان يعبده أبوه وقومه من أصنام ، كهذه الأصنام التى يعبدها المشركون فى مكة ، وهو يخالف أباه وقومه فى شركهم ، وينكر عليهم ما هم عليه من ضلال [٤٠] ، وقد استهل الخليل حواره معهم بهذا السؤال (ما تعبدون) ؟ والمعنى: أى شئ تعبدون ؟ وهو يعلم أنهم يعبدون أصناماً ، ولكنه أراد تبكيتهم وإلزامهم الحجة ، وليريهم أن ما يبعدونه لا يستحق العبادة ، ونلحظ أنهم (أطنبوا فى الجواب بإظهار الفعل وعطف دوام عكوفهم على أصنامهم ، مع أنه لم يسأل عنه قصداً إلى إبراز ما فى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك) [٤١] ، وقولهم: " نعبد أصناما " – وقد كانوا يسمونها آلهة – ينبئ بأنهم لم يكونوا يملكون إنكار أنها أصنام منحوتة من الحجر ، وأنهم مع ذلك يعكفون عليها ، ويدأبون على عبادتها ، وهذا نهاية السخف ، ولكن العقيدة متى زاغت لم يفطن أصحابها إلى ما تنحط إليه عبادتهم وتصوراتهم ومقولاتهم [٤٢] .

([٤٠]) فى ظلال القرآن ٢٦٠٢/٥ .

([٤١]) مفتاح العلوم للسكاكى ، ص٢٦٨ ، تحقيق هنداوى – ط دار الكتب العلمية – بيروت ، وتفسير الألوسى ٩٣/١٩ ، شروح التلخيص ١٩/٢ ، ط دار السرور – بيروت .

([٤٢]) ينظر: فى ظلال القرآن٣٥١/٥ وكان أبوه يصنع الأصنام فيعطيها ولده فيبيعونها ، وكان يعطيه فينادى مِنْ يشترى ما يضره ولا ينفعه ، فرجع وأخوته قد باعوا أصنامهم ، ويرجع إبراهيم بأصنامه كما هى .

ثم سألهم سؤلاً آخر لتقرير الحجة ، وليوقظ قلوبهم الغافلة ، وينبه عقولهم المتبلدة إلى هذا السخف الذى يزاولونه دون وعى ولا تفكير ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ (٤٣) .

وهذا السؤال من الكلام المنصف ، ليقرر المخاطب بعد الاعتراف بالحجة بأن ما هو عليه خطأ ، فإنها إذا كانت لا تسمع ، ولا تنفع ولا تضر ، فلا وجه لعبادتها ، فإذا قالوا: نعم هى كذلك ، أقروا بأن عبادتهم لها من باب العبث ، وعندئذ تقوم الحجة عليهم ، ونلحظ أنهم لم يجدوا جوابا إلا الاعتراف بالتقليد البحت ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (وهذا الجواب هو العصى التى يتوكأ عليها كل عاجز ، ويمشى بها كل أعرج ، ويغتر بها كل مغتر ، وينخدع بها كل منخدع ، وعندئذ يعلن إبراهيم براءته من الشرك وأهله ، ويؤكد أنه لا يعبد إلا الله (٤٤) ، وأخذ يعدد صفات هذا الرب ، فقال ﴿ الذىخلقنى ... ﴾ فإن مَنْ تفرد بخلق العبد وبهدايته ، وبرزقه ... هو من يستحق العبادة ... ، وإذا كان إبراهيم قد استدل بهذه الآيات على أحقيته تعالى بالعبادة ، فقد علمنا من خلالها سنة الدعاء ، حيث بدأ

---

(٤٣) إذ لابد للعبادة – لاسيما عند كونها على ما وصفتم من المبالغة فيها – من جلب النفع أو دفع الضر ، فأقل ما يتوفر لإله يعبد أن يكون له سمع لعابده الذى يتوجه إليه بالعبادة والابتهال ، ويدعوه لجلب النفع ودفع الضر .

(٤٤) ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، والمعنى : اعلموا أن ما تعبدونه أنتم وآباؤكم الماضين أعداء لى إلا الذى تقولون : رب العالمين ، مالك الأمر ، فهو وحده الذى أعبده .

بالثناء على الله ، ثم أعقبه بالدعاء ، ويشهد لذلك ما جاء على لسان الملائكة ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ... ﴾[٤٥]، ونلحظ الفصل بالقول بين هذه الآيات (قال ... قالوا) على طريق الاستئناف البيانى ، وتقدير سؤال قبل كل قول ، كما نلحظ التعبير بالجمع فى كلامهم (نعبد – فنظل – عاكفين) بينما نجد الإفراد فى كلام إبراهيم (عدو لى – خلقنى – يهدين – يطعمنى – يسقين) ذلك لأنه دخل على هؤلاء القوم بمفرده ، فلم يكن معه أحد من المؤمنين.

وقوله ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ من جملة ما جاء فى وصف الرب الذى ذكر إبراهيم أنه يعبده وحده ، ولا يشرك به شيئا ، وهو (عطف على ﴿ يطعمن ويسقين ﴾ نظم معهما فى سلك الصلة لموصول واحد ، لما أن الصحة والمرض من متفرعات الأكل والشرب : فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وقال الحكماء: لو قيل لأكثر الموتى: ما سبب آجالكم ؟ لقالوا: التخم) [٤٦] .

---

(٤٥) بدأوا بالثناء وأردفوه بالدعاء ، وكذلك فعل إبراهيم ، حين قال: " الذى خلقنى ... " ثم جاء بالدعاء " رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين " مع مراعاة أن تقديم الثناء فى كلام الملائكة لبيان السبب ، وفى كلام إبراهيم لبيان أن من كان بهذه الصفات فإن التوجه بالدعاء لا يصح إلا له .

(٤٦) قال البيضاوى : (قوله﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ عطف على " يطعمنى ويسقين " لأنه من رواد فهما من حيث إن الصحة والمرض فى الأغلب يتبعان المأكول والمشروب) [تفسير البيضاوى ١٠٥/٤ ، ط دار صادر – بيروت].

ومعنى الآية: إذا سقم جسمى واعتل فهو يبرئه ويعافيه [٤٧] ، وقال ابن كثير: " أى إذا وقعت فى مرض ، فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه " [٤٨] .

ونلحظ أن الآية عطفت على الصلة قبلها دون أن يكرر الموصول ، وذلك أن العرب قد أجرت الموصول والصلة مجرى الشئ الواحد ، ونزلتهما منزلة الخبر المنفرد ، والعطف هنا للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، وفيها دلالة على أنه سبحانه المتفرد بهذه الأشياء الجامع لها .

والآية تؤسس على أسلوب شرطى ، فقد جاءت فى بنية أسلوب الشرط المتسم بسمة الإحكام والدقة التى تتسم بها أساليب الشرط عادة ، علماً بأن بنية الشرط من الأبنية المهمة التى تمثل حقلاً خصباً لمن يقوم بالدراسات الأسلوبية ، ويشتغل بها ، والأسلوب الشرطى هنا دفع المتلقى إلى التشويق ، وزيادة التنبيه ، فإنه إذا سمع الشرط اشتاقت نفسه إلى معرفة الجواب ، فإذا جاء صادف نفساً مهيأة فتمكن فيها فضل تمكن ، وقد جاء مكتمل الأركان ، حيث

([٤٧]) تفسير الطبرى ١٠٥/١٩ .

([٤٨]) تفسير ابن كثير ٣٢٧/٣ ، وقال القرطبى: " لهم ... وجهان أحدهما: إذا مرضت بمخالفته شفانى برحمته ، الثانى: إذا مرضت بمقاساة الخلق ، شفانى بمشاهدة الحق، وقال جعفر بن محمد الصادق: إذا مرضت بالذنوب شفانى بالتوبة " [تفسير القرطبى ١٠٣/٧ ، ١٠٤] وقال بعضهم: إذا مرضت بداء محبته ، وسقمت بسقم الشوق إلى لقائه ووصله فهو يشفين بحسن وصاله ، وكشف جماله :

بمقدمك المبارك زال دائى وفى لقياك عجل لى شفائى [تفسير حقى ٢٨٤/٦] .

الأداة وفعل الشرط والجواب ، وآثر من أدوات الشرط (إذا) وهى ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنى الشرط ، ويكثر مجئ الماضى بعدها مراداً به الاستقبال [٤٩] ، وتختص بالدخول على الأفعال ، ومذهب سيبويه أنها لا تضاف إلا إلى جملة فعلية ، ولهذا إذا وقع بعدها اسم قدر بينه وبينها فعل محافظة على أصلها [٥٠] ، وظاهر كلام النحاة يشعر أنها لا تدخل إلا على المتيقن ، وما فى معناه [٥١] ، وعلى حد تعبير البلاغيين أنها تدل على القطع بوقوع الشرط ، وعليه فمعنى الآية: أن وقوع المرض أمر محقق للإنسان فى حياته ، وأنه إذا وقع بإبراهيم – عليه السلام – فإنه يتلوه الشفاء الذى لا يكون إلا من الله تعالى ، فلا شفاء إلا من الله .

وقوله " مرضت " المَرَضُ: بالتحريك مصدر مَرِضَ ، والجمع أمراض ، وهو فساد المزاج ، وسوء الصحة بعد اعتدالها ، وقوله " وإذا مرضت " إشارة إلى ما تقتضيه بشرية الرسل ، فهم يتصفون بصفات البشر مما لا ينافى النبوة ، فقد خلقوا جسداً كسائر البشر ، وتحتاج أجسادهم إلى ما يحتاجه سائر البشر من طعام وشراب ... والإصابة بالمرض والموت وغير ذلك، قال تعالى﴿أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا

([٤٩]) ينظر: الجنى الدانى ٣٦٧ .

([٥٠]) ينظر: البرهان للزركشى ١٩٤/٤ وما بعدها .

([٥١]) وهى لا تجزم الفعل المضارع إلا إذا أريد بها معنى إنْ وأعرض عما فيها من معنى الزمان ، لأنها لا تتمحض شرطاً ، بل فيها معنى التزام الجزاء فى وقت الشرط من غير وجوب أن يكون معللاً بالشرط .

يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾[٥٢] وقال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [٥٣] ، وقال ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [٥٤] ، والمرض شغل شاغل عن أداء ما أوجب الله على العبد أداءه من حقوق الله ؛ لإحساسه بالألم وهو فى محل التكليف ، وما يحس بالألم إلا الروح الحيوانى ، فيشغل الروح الحيوان فيشغل الروح المدبر لجسده عما عهد إليه فى هذه الدنيا ، فلهذا أضاف المرض إليه[٥٥]،قال الزمخشرى: " قال " مرضت " دون أمرضنى لأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان فى مطاعمه ومشاربه وغير ذلك"[٥٦] .

ويرى البعض أن إبراهيم أسند إلى نفسه المرض لأن المقصود تعديد النعم ، واستعمالاً لحسن الأدب ، إذ هو معنى نقص ، ولا يضاف إليه سبحانه من الألفاظ إلا ما يستحسن منها ، دون ما يستقبح ، وهذا موجود بكثرة فى الذكر الحكيم [٥٧] فالنظم غير إلى ما

---

(٥٢) ، (٥٣) ، (٥٤) الآيات على الترتيب: المائدة ٧٥ ، الأنبياء ٨ ، الزمر ٣٠ .

(٥٥) الفتوحات المكية لابن عربى ٢١٩/١٠ [الحاسب الآلى] .

(٥٦) الكشاف ١١٧/٣ ، وينظر: البحر المحيط ٢٣/٧ .

(٥٧) قال تعالى ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ فأسند الإنعام إلى الله ، والغضب حذف فاعله تأدباً ، وفى قوله ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ أسند الضلال إلى العبيد ، وأسند الخضر عيب السفينة إلى نفسه ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وفى قوله ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ

عليه تفادياً من إسناد ما تكرهه النفس إليه سبحانه ، ونبينا ﷺ الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه قال ﴿ إن الله معنا ﴾ [٥٨] فلما قدم اسم الله على اسمه عصم الله أمته من الشرك إلى يوم القيامة [٥٩] ، فهذا أدب عال، وخلق رفيع ، إذ فيه إسناد الفضائل والخيرات إلى الله ، الذى لا يكون الخير إلا منها ، وفى إسناد الشرور والقبائح إلى النفس هضم لها ، وعدم تزكيتها بما يبطل العمل،وجمهور المفسرين يرون هذا الرأى.

وإضافة المرض إلى نفسه ، والشفاء إلى الله لا يقدح فى كونه تعالى خالقا للمرض والشفاء ، فالمرض والشفاء جميعاً من الله تعالى ، وإنما فصل بينهما رعاية للأدب ، فإنه يقال: يا مدبر السموات والأرض ، ولا يقال: يا مدبر القمل والصبيان والخنافس[٦٠].

(ودخلت الفاء فى ﴿ فهو يشفين ﴾ لأنه جواب ، ولم يقل: إذا مرضت هو يشفين ، إذ يفوت ما هو موضوع لإفادة التعقيب ، ويذهب الضمير المعطى معنى الحصر) [٦١] ، وقال ابن الأثير (ت

﴾ إسناد المساس إلى الضراء بعد إسناد الإذاقة إلى ضمير الجلالة من الآداب القرآنية . [ينظر: الفتوحات الإلهية للجمل ٢٨٢/٣ مطبعة الحلبى] .

([٥٨]) التوبة من الآية ٤٠ .

([٥٩]) بخلاف قوم موسى فإنهم ارتدوا عن دينهم إلى عبادة العجل ، لأنه قدم اسمه على اسم الله تعالى حيث قال ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي ﴾ [نزهة المجالس ومنتخب النفائس ٧/١ ، فصل فى الأدب] .

([٦٠]) تفسير النيسابورى ٤٩/١٠ .

([٦١]) البرهان للزركشى ٦٨/٤ ، ٦٩ .

٦٣٧هـ) فى سر العطف بالفاء : " لأن الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من أحدهما " ، وزاد العلوى قوله " وتنبيها على عظم المنة بالعافية بعد المرض من غير تراخ " [٦٢] ولما كان المقام إبطال اعتقادهم تصرف أصنامهم [٦٣] ، وأيضاً لما كان الشفاء يعزى إلى الطبيب وإلى الدواء على سبيل المجاز ، جاء الضمير (هو) لينبه إلى أن الله وحده هو الشافى ، وأن غيره لا يشفى كما تقول: زيد هو الذى فعل كذا ، أى لم يفعله غيره ، وأكد ذلك بتقدمه على خبره الفعلى (يشفين) فهو يفيد تخصيصه تعالى بالشفاء ، ولا يصح أن يجعل الضمير للفصل ، لأن ضمير الفصل لا يقع بعد العاطف [٦٤] .

(والكفالة المباشرة الحانية الراعية الرفيقة الودود ، يحس بها إبراهيم فى الصحة والمرض ، ويتأدب بأدب النبوة الرفيع ، فلا ينسب مرضه إلى ربه ، وهو يعلم أنه بمشيئة ربه يمرض ويصح ، إنما يذكر ربه فى مقام الإنعام والإفضال ، إذ يطعمه ويسقيه ، ويشفيه ، ولا يذكره فى مقام الابتلاء حين يبتليه) [٦٥] .

([٦٢]) ثم عطف الثالث بثم ، لأن الإحياء يكون بعدالوت ، ولهذا جئ فى عطفه بثم التى هى للتراخى ، ولو قال قائل فى معنى هذه الآية: الذى يطعمنى ويسقين ويمرضنى ويشفين ويميتنى ويحيين لكان للكلام معنى تام إل أنه لا يكون كمعنى الآية إذ كل شئ منها قد عطف بما يناسبه ويقع موقع السداد منه " المثل السائر ٤٦/٢ . والطراز ص ٢٢٣ .

([٦٣]) لأنهم كانوا يزعمون أن الأصنام تقدر لهم تيسير ما يأكلون وما يشربون ، وبها برؤهم إذا مرضوا .

([٦٤]) ينظر: والتحرير والتنوير ١٤٣/١٩ .

([٦٥]) فى ظلال القرآن ٢٦٠٣/٥ .

وقوله (فهو يشفين) يؤخذ منه جواز تسمية الله تعالى بالشافى ، فقد أجاز العلماء تسمية الله تعالى بما ليس فى القرآن بشرطين: أحدهما: أن لا يكون فى ذلك ما يوهم نقصا ، الثانى:أن يكون له أصل فى القرآن كما هو الحال هنا [٦٦] وحذفت الياء من آخر الفعل اكتفاء بالكسرة عنها، ولا خلاف بين المصاحف فى هذا الحذف، والحذف جاء مشاكلة لرءوس الآيات ، فقبلها (يهدين – ويسقين) وبعدها (يحيين)[٦٧] وفى هذا الحذف إشارة إلى أهمية وضرورة أخذ القراءة القرآنية عن الصحابة الكرام ، إذ لا يرشد إلى هذا التغاير فى رسم المصحف بين كلمة وأخرى إلا الصحابة .

والتخصيص المستفاد من قوله (فهو يشفين) يؤكده ما رواه البخارى أنه ﷺ قال: (اللهم رب الناس مذهب البأس ، اشف أنت الشافى ، لا شافى إلا أنت ، شفاء لا يغادر سقماً) [٦٨] .

وما رواه مسلم (عن أبى سعيد أن جبريل أتى النبى ﷺ ، فقال: يامحمد اشتكيت ؟ فقال: نعم ، قال: باسم الله أرقيك من كل شئ يؤذنك ، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك ...) [٦٩] .

([٦٦]) فتح البارى ٢٧٢/١٦ ، فيض القدير ١١٠/٥ .

([٦٧]) ومما يلاحظ أن حذف الياء من آخر الكلمة ورد ثمان مرات فى سورة الشعراء ، ومواضعها: أخاف أن يكذبون ، أن يقتلون ، فهو يهدين ، ويسقين ، فهو يشفين ، ثم يحيين ، وأطيعون ، إن قومى كذبون فهذه الكلمات كلها الياء ساقطة منها فى المصحف والوقوف عليها بغير ياء .

([٦٨]) صحيح البخارى ، باب رقية النبى ﷺ .

([٦٩]) صحيح مسلم ، باب الطب والمرض والرقى (وجاء فى فضل قراءة هذه الآية قولهﷺ : " إذا توضأ العبد لصلاة مكتوبة فأسبغ الوضوء ثم خرج من

بهذه الآية وما تبعها مما جاء فى سياقها أقام إبراهيم – عليه السلام – الأدلة على صحة عبادته لله ، وأن إلهه بما اتصف به من صفات جدير بأن يعبد وحده ، أما هذه الأصنام التى لا تخلق ، ولا تهدى ولا تشفى ولا تطعم ولا تسقى ولا تحى ولا تميت ولا تنفع عابديها بكشف الكروب ولا مغفرة الذنوب فيجب ألا تعبد ، لفقدانها مؤهلات العبادة .

باب داره يريد المسجد فقال حين يخرج ... وإذا مرضت فهو يشفين ، شفاه الله وجعل مرضه كفارة لذنوبه " [تفسير الألوسى ٩٩/١٩] .

المبحث الثانى

شفاء القرآن لقلوب المؤمنين

الموضع الأول : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء ٨٢] .

عن ابن مسعود أن النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح ، وحول البيت ثلاث مائة وستون صنماً لقبائل العرب ، صنم كل قوم بحيالهم ، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، فينكب الصنم لوجهه ، حتى ألقاها جميعا ، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة ، وكان من قوارير صفر ، فقال : ياعلى ارم به ، فحمله رسول الله ﷺ حتى صعد فرمى به فكسره ، فجعل أهل مكة يتعجبون ، ويقولون : ما رأينا رجلاً أسحر من محمد ، فلا جرم كذبهم الله وصدق نبيه بقوله : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ... ﴾ (٧٠) ، والمعنى : وننزل عليك أيها الرسول من القرآن ما يشفى القلوب من الأمراض كالشك والنفاق والجهالة ، وما يشفى الأبدان برقيتها به ، وما يكون سبباً للفوز برحمة الله ، ولا يزيد هذا القرآن الكفار عند سماعه إلا كفراً وضلالاً لتكذيبهم به ، وعدم إيمانهم .

واستهلت الآية بالفعل المضارع المسبوق بواو العطف ، وهي هنا لعطف مفصل على مجمل ، فبعد أن ذكرت الآيات أن الحق قد ظهر ، وأن الباطل قد زهق ، أخذت في تفصيل ذلك ببيان أن الحق

---

(٧٠) تفسير النيسابوري ١٥/٧١ .

في القرآن ، فهو الشفاء والرحمة من الضلال ، ومن العذاب يوم القيامة ، والفعل (ننزل) مضارع نزّل ، والتشديد فيه إشارة إلى قوله ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [٧١] وقرئ (يُنَزِّل) بإسناده إلى ضمير الغيبة لأنه معلوم لا يشك فيه ، وقرئ (نُنْزِل) بغير تشديد لبيان أن الإنزال من الله سهل لا صعوبة فيه، وأن الملك الموكل بذلك لا يستطيع المخالفة أو التحريف (ولأن القرآن مصدر الحق ومدحض الباطل ... اختير للإخبار عن التنزيل الفعل المضارع المشتق من فَعَّل المضاعف للدلالة على التجديد والتكرير والتكثير وهو وعد بأن يستمر هذا التنزيل زمناً طويلاً) [٧٢] فـ (التنزيل مختص بالنزول على سبيل التدريج ، والإنزال مختص بما يكون النزول فيه دفعة واحدة ، ولهذا قال الله تعالى ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾) [٧٣] لكن (يشكل عليه ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [٧٤] حيث قرن نزل بكونه جملة ، وقوله ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾ [٧٥] وذكر بعض المحققين لهذا المقام أن التدريج ليس هو التكثير ، بل الفعل شيئاً فشيئاً كما في تسلسل ، والألفاظ لابد فيها من ذلك ، فصيغة نزل تدل عليه ، والإنزال مطلق، لكنه إذا قامت القرنية

([٧١]) المزمل آية ٥ .

([٧٢]) التحرير والتنوير١٥/١٨٩ .

([٧٣]) تفسير اللباب لابن عادل ١٠/١٥٨ من الحاسب الآلى ، والآية من آل عمران رقم ٣

([٧٤]) الفرقان ٣٢

([٧٥]) النساء ١٤٠

يراد بالتدريج التنجيم ، وبالإنزال الذي قد قوبل به خلافه ، أو المطلق بحسب ما يقتضيه المقام) [٧٦] .

ونلحظ أن الأسلوب قد وقع فيه الإخبار عن المضمر العظيم بالجملة الفعلية المسند فعلها إلى ضمير العظمة ؛ لاقتضاء المقام ذلك ، فـ (لا ريب أن إنزال الكتب وإرسال الرسل أولى النعم بالتذكير والتقدير ، وأحقها بالإجلال والتعظيم ؛ لأن ذلك هو الدليل الهادي لمعرفة الغاية من الخلق ، التي يشير إليها قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [٧٧] لذلك نرى هذين المعنيين ... مقترنين بضمير الفخامة تنويها بشأنهما ، وتنبيهما للأذهان كي تُعرف قيمة النعمة فيهما) [٧٨] ولم يذكر المنزل عليه ؛ لأن الكلام في القرآن ، ومعلوم أنه نزل على محمد ﷺ ، وقوله (ننزل) جملة فعلية جئ بها للتدريج والتجديد والتكرير ، و" من " لبيان الجنس ، قال القرطبي (مِنْ اللغويين مَنْ يقول " مِنْ " مجنسه ، تقديرها ننزل الشفاء من جنس القرآن ، ومن جهة القرآن ومن ناحية القرآن) [٧٩] واعترض أبو حيان بأن التى لبيان الجنس لابد وأن يتقدمها ما تبينه ، لا أن تتقدم هي عليه [٨٠] . ورد عليه بأن تقديم البيان لتحصيل غرض الاهتمام

([٧٦]) ينظر: تفسير الألوسي ١٤٥/١٥ .

([٧٧]) الذاريات ٥٦

([٧٨]) من روائع الإعجاز لعزالدين على السيد ص ٣٣ دار الطباعة المحمدية أولى ١٩٧٧م

([٧٩]) تفسير القرطبي ٣١٦/١٠ .

([٨٠]) البحر المحيط ٦٩/٦ .

بذكر القرآن ، مع غرض الثناء عليه بطريق الموصولية ، بقوله ﴿ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ ﴾ للدلالة على تمكن الوصف منه بحيث يعرف به ، والمعنى : ننزل الشفاء والرحمة وهو القرآن . (٨١)

وقيل " من " للتبعيض ، وأنكر بعض المتأولين ذلك بحجة أنه يلزمه أن يكون بعضه لا شفاء فيه ، ورد بأن المعنى : أن منه ما يشفي من المرض الحسي كالفاتحة وآيات الشفاء ، ومن المرض المعنوي كآيات كثيرة ، وقال القرطبي : قال القاضي أبو محمد : وليس يلزمه هذا – إشارة إلى المنكر – بل يصح أن تكون للتبعيض بحسب أن إنزاله إنما هو مبعض ، فكأنه قال : وننزل من القرآن شيئا شفاء مما فيه كله شفاء (٨٢) وقيل " من " زائدة للتأكيد ، (والمعنى : وننزل القرآن شفاء ، لأن كل حرف منه يشفى ، وليس الشفاء مختصاً به بعضه دون بعض ، وذلك يجري مجرى قول العربي : قطعت من القميص ثوباً ، يريد قطعت الثوب كلَّه قميصاً)(٨٣).

---

(٨١) التحرير والتنوير ١٨٩/١٥ .

(٨٢) ينظر: المحرر الوجيز ٣٨/١٠ ، تفسير القرطبي ٣١٦/١٠ .

قال الباقلاني : " فظاهر عند أهل التأويل كالدليل على أن الشفاء ببعضه أوقع ، وإن كنا نقول : إنه يدل على أن الشفاء في جميعه " [إعجاز القرآن ٢٥٦/١]

(٨٣) تفسير القرطبي ٣١٦/١٠ ، وينظر : تفسير النيسابوري ٧٢/١٥ .

ولفظ " القرآن " قيل هو اسم علم غير مشتق ، خاص بكلام الله مثل التوراة والإنجيل ، وهو غير مهموز [٨٤] وقيل هو مشتق ، واختلف في أصل اشتقاقه ، فقيل مشتق من قرنت الشيء بالشئ إذا ضممت أحدهما إلى الآخر ، وسمى به لقران السور والآيات والحروف فيه ، وقيل مشتق من القرائن ؛ لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضا ، ويشابه بعضها بعضا وهي قرائن ، وعلى القولين بلا همز ونونه أصلية ، وقال قوم هو مهموز ، واختلفوا في أصله ، فقال قوم هو مصدر قرأت [٨٥] سمى به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر ، وقال آخرون هو وصف على فعلان من القرء بمعنى الجمع ، ومنه : قرأت الماء في الحوض أي جمعته ، وسمي بذلك لأنه جمع السور بعضها إلى بعض ، قال الراغب : لا يقال لكل جمع قرآنا ، ولا لجمع كل كلام قرآنا ، قال : وإنما سمي قرآنا لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة ، وقيل : لأنه جمع أنواع العلوم كلها بمعان ، كما قال تعالى ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[٨٦] .

([٨٤]) وبه قرأ ابن كثير وهو مروي عن الشافعي ، واختاره السيوطي [الإتقان ١١٥/٢] .

([٨٥]) وقيل : مشتق من القرى وهو الجمع ، ومنه قريت الماء في الحوض أي جمعته . [البرهان للزركشي ١/ ٢٧٧]

([٨٦]) الإتقان للسيوطي ١١٥/٢ ، وينظر : البرهان للزركشي ٢٧٧/١، ٢٧٨

وقد روعي في تسميته بهذين الاسمين الإشارة إلى أن من حقه أن يحفظ في موضوعين لا موضع واحد ، أي أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا [٨٧]

ولفظ (القرآن) استدل به مَنْ رد على مَنْ قال من الجهمية (أن الذي نتلوه ونقرؤه بألسنتنا ونكتبه في مصاحفنا ليس هو القرآن الذي هو كلام الله ، هذا حكاية لذلك ، فما نقرؤه نحن حكاية لذلك القرآن بألفاظنا نحن ، وألفاظنا به مخلوقة) [٨٨] وأن القرآن الذي تكلم الله به ، وقاله فهو كلام الله غير مخلوق ، وهذا القرآن في السماء ، وقد كذبهم القرآن والسنة ، وجاء في كلام الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ما ينص على أن ما بأيدينا هو كلام الله تعالى ، قال تعالى ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [٨٩] فلم يقل : حتى يسمع حكاية الله ، وقال : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ [٩٠] فأخبر أن السامع إنما يسمع القرآن لا حكاية القرآن ، وقال ﷺ : " إن قريشاً منعتنى أن أبلغ كلام ربي " [٩١] فلم

([٨٧]) (فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب والمنقول إلينا جيلاً بعد جيل ، على هيئته التى وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحافظ بالإسناد الصحيح المتواتر) [النبأ العظيم لمحمد عبدالله ، دراز ، ص ١٢ ، ط دار القلم ، الكويت]

([٨٨]) الإبانة الكبرى لابن بطة ٥/ ١٧٩ [الحاسب الآلى] .

([٨٩]) التوبة من الآية ٦

([٩٠]) الأعراف ٢٠٤

([٩١]) الإبانة الكبرى لابن بطة ١٧٩/٥

يقل حكاية كلام ربي، وقال : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " [٩٢] ، وقال عبدالله بن مسعود : إن هذا القرآن كلام الله فلا تخلطوا به غيره ، وقال : تعلموا كتاب الله واتلوه فإن لكم بكل حرف عشر حسنات .

فكل هذا ونحوه من القرآن والسنة وقول الصحابة يدل على بطلان قول هذه الطائفة .

وبهذا يثبت أن ما جاءنا به ﷺ من قرآن هو كلام الله الذي تكلم به على الحقيقة ، متلو في المحاريب ، مكتوب في المصاحف ، محفوظ في صدور الرجال ، ليس بحكاية ولا عبارة عن القرآن ، ومن يقل بغير هذا فهو مخالف لمذهب السنة والجماعة [٩٣].

وقوله (ما هو شفاء) ما : اسم موصول ، والتعبير به لإبراز ما في الصلة من معان ذات أهمية ودلالة على الغرض المطلوب و " هو شفاء " مبتدأ وخبر صلته ، والجملة من الموصول وصلته مفعول (ننزل) وفي هذا الشفاء (ثلاثة أقوال : أحدهما شفاء من الضلال ؛ لما فيه من الهدى [٩٤] والثانى شفاء من السقم

([٩٢]) صحيح البخاري حديث رقم ٤٦٣٩ ، سنن أبي داود ٢٤٥/٤ ، باب في ثواب قراءة القرآن

([٩٣]) ينظر : الإبانة الكبرى لابن بطة ١٧٩/٥ ، ومن أراد المزيد فيرجع إلى هذا الكتاب .

([٩٤]) لأنه يتبين به المختلف ، ويتضح به المشكل ، ويستشفى به من الشبهة ، ويهتدي به من الحيرة ، فهو شفاء للقلوب ، بزوال الجهل وإزالة الريب ، وفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى .

لما فيه من البركة [٩٥] والثالث : شفاء في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان) [٩٦] والتحقيق أن القرآن شبيه بالدواء للمريض ، والجهل وسوء الاعتقاد شبيه بالمرض ، فهو مزيل لأمراض القلب ، وهذا أولى ، لأن القرآن نزل لذلك ، وأما شفاء المرض فتابع إذا توسل به من قلب صفي [٩٧] لذا قال الألوسي في معنى (ما هو شفاء) أي ما هو في تقديم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافي للمرضى[٩٨]) ، والحكم على القرآن بأنه شفاء إما أن يكون حقيقة ، أومجازاً ، فعلى اعتبار كونه حقيقة ، ، هل هو في الجانب الحسي أم في الجانب المعنوي ، قيل هو حقيقة في الجانبين ، فهو في الجانب الحسي يشفى الأبدان بالرقي والتعويذ ونحوه، والدليل على ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه(عن عائشة-ﷺ- أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتهما) [٩٩] والأخبار الصحيحة في قرآءة آيات معينة للاستشفاء من أدواء موصوفة ،

([٩٥]) " فعن أبي سعيد الخدرى أن ناسا من أصحاب النبيﷺ أتوا على حي من أحياء العرب فلم يقروهم ، فبيناهم كذلك إذ لدغ سيد أولئك ، فقالوا : هل فيكم دواء أو راق ، فقالوا إنكم لم تقرونا ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً ، فجعلوا لهم قطيعاً من شاء ، قال : فجعل يقرأ أم القرآن ويجمع بزاقه ويتفل فبرأ الرجل ....." مسند الإمام أحمد ١٢٢/١٧ .

([٩٦]) تفسير زاد المسير ٤/ ١٨٨

([٩٧]) تفسير إطفيش إباضي ٢٨٨/٥ وينظر : تفسير الخازن ١٧٨/٣ .

([٩٨]) تفسير الألوسي ١٤٥/١٥ .

([٩٩]) صحيح البخاري حديث رقم ٤٦٢٩ ، باب فضل المعوذات .

بله الاستعاذة بآيات منه من الضلال كثيرة في صحيح البخاري وجامع الترمذي وغيرهما [١٠٠] .

أما في الجانب المعنوي فالأمراض (تنقسم إلى نوعين أحدهما : الاعتقادات الباطلة [١٠١]، والثاني : الأخلاق المذمومة ، أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فساداً ، والاعتقادات الفاسدة في الذات والصفات والنبوات والقضاء والقدر والبعث بعد الموت فالقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه الأشياء ، وإبطال المذاهب الفاسدة ، فلا جرم كان القرآن شفاء لما في القلوب من هذا النوع ، أما النوع الثاني وهو الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على التنفير منها ، والإرشاد إلى الأخلاق المحمودة، والأعمال الفاضلة، فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الباطنة)[١٠٢] .

([١٠٠]) التحرير والتنوير١٥/١٩٠ ، وروي أنه مرض للأستاذ أبي القاسم القشيري ولد مرضاً شديداً ، بحيث أيس منه فشق ذلك على الأستاذ ، فرأى الحق سبحانه في المنام فشكا إليه ، فقال الحق تعالى : اجمع آيات الشفاء واقرأها عليه ، واكتبها في إناء واجعل فيه مشروباً واسقه إياه ، ففعل ذلك فعوفي الولد ، قال تاج الدين السبكي : ورأيت كثيراً من المشايخ يكتبون هذه الآيات للمريض ويسقاها في الإناء طلباً للعافية [تفسير حقي ١٩٤/٥ ، وتفسير الألوسى ١٤٥/١٥] .

([١٠١]) وأمراض القلوب نوعان ، نوع لا يتألم به صاحبه في الحال وهو مرض الجهل والشبهات والشكوك ، وهو أعظم النوعين ألماً ، ولكن لفساد القلب لا يحس به ، ونوع مرض مؤلم في الحال كالهمِّ والغم والحزن والغيظ،وهذا قد يزول بأدوية طبيعيه بإزالة أسبابه.

([١٠٢]) تفسير الخازن ١٧٨/٣ .

وعلى اعتبار كونه مجازاً فذلك في الجانب المعنوي ؛ لأن (الشفاء حقيقة زوال الداء ، ويستعمل مجازاً فى زوال ما هو نقص وضلال وعائق عن النفع من العقائد الباطلة ، والأعمال الفاسدة والأخلاق الذميمة تشبيها له ببرء السقم كقول عنترة:

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم)[١٠٣]

و(استعارته الشفاء للقرآن هو بحسب إزالته للريب ، وكشفه غطاء القلب لفهم المعجزات ، والأمور الدالة على الله تعالى المقررة لشرعه) [١٠٤] والاستعارة تصريحية حيث شبه إزالة القرآن للريب وما يعلق بالقلب من عقائد باطلة بالشفاء من الأمراض الحسية ، والاستعارة هنا تعلى من شأن القرآن حين تبرز أثره على المؤمنين حساً ومعنى .

والجمهور على رفع (شفاء ورحمة) خبرين لـــ (هو) وقُرئ بنصبها على الحال ، والخبر (للمؤمنين) وقدمت الحال على عاملها المعنوى كقوله ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ ﴾ [١٠٥] بنصب مطويات ، أو منصوبان بإضمار فعل عند من يمنع تقديم الحال على عاملها المعنوى ، وقرئ برفع (شفاء) ونصب (رحمة) عطفاً على (ما) الموصولة كأنه قيل: وننزل من القرآن رحمة [١٠٦] وفى المراد

([١٠٣]) التحرير والتنوير ١٨٩/١٥ .

([١٠٤]) المحرر الوجيز ٣٣٨/١٠ .

([١٠٥]) الزمر من الآية ٦٧ .

([١٠٦]) ينظر: تفسير اللباب ١٩٥/١٠ .

بالرحمة قولان: أحدهما: النعمة والآخر: سبب الرحمة [١٠٧] ويوضح النيسابورى ذلك بقوله (رحمة للمؤمنين لما فيه من كيفية اقتناص العلوم الجليلة ، والأخلاق الفاضلة ، التى بها يصل الإنسان إلى جوار الملائكة المقربين ، بل إلى جناب رب العالمين) [١٠٨] والقرآن سبب الرحمة المتنزلة من الله على عباده المؤمنين ، فمن قرأه ، أو حفظه ، أو تدارس معانيه استحق الرحمة ، بل إنها تتجاوز ذلك ، فمن استمع له وأنصت استحق الرحمة ، قال تعالى ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [١٠٩] والقرآن رحمة للخلق من ظلم أنفسهم ، وظلم بعضهم لبعض [١١٠] .

فالآية تقرر أن القرآن شفاء لأنه يعالج الانحرافات والفساد فى المجتمع ، ورحمة لأنه يمنع أن تأتى هذه الداءات إلى المجتمع ، وذلك عين الرحمة [١١١] ، والتنكير فيهما للعموم ، الذى هو فى

---

(١٠٧) زاد المسير ١٨٨/٤ ، وقيل: إنها الهدى وقيل البركة،وقيل البيان .

(١٠٨) تفسير النيسابورى ٧٢/١٥ .

(١٠٩) قال ﷺ (ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة) والآية من الأعراف ٢٠٤ .

(١١٠) سواء أكان هذا الظلم بانتهاك الحقوق ، أم بالاستبداد بالخيرات أم بإضلال الأكابر للأصاغر ، والرحمة هنا رحمة إلهية جاءت فى كل الشرائع ، فقال تعالى مخبراً عن الرحمة التى ضمنها التوراة ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ وقال مخبراً عن مبعث عيسى ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ .

(١١١) ومعنى " رحمة " أننا لو اتبعناها لن يقع فساد فى المجتمع يضطرنا إلى علاج ، وعندما نغفل عن مبادئ هذه الرحمة يوجد لهذه الغفلة آثار ضارة فى

ذاتهما وفيمن جاء إليهم ، فالرسول ﷺ جاء للعالمين عموماً زمانا ومكانا . وفى عطف الرحمة على الشفاء دلالة على أنه جامع لهما معاً .

وفى قوله (للمؤمنين) حذف للمتعلق أى بمحمد ﷺ والقرآن ، وحذف للعلم بالقصة ، ولاختصاص الإيمان بمحمد والقرآن عبر بالاسم للدلالة على رسوخ الإيمان فيهم ، قال البقاعى: " للمؤمنين أى الراسخين فى الإيمان " وإنما كان القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين ، لأنهم الذين يعملون بما فيه من فرائض الله ، يحلون حلاله ويحرمون حرامه ، فيذهب ما فى قلوبهم من شك ونفاق وشرك وزيغ ، ويقيهم من الوسوسة والقلق والحيرة ، فالقلق مرض ، والحيرة نصب ، والوسوسة داء ، والقرآن شفاء من ذلك كله ، وهو رحمة لهم حيث يكون سبباً فى دخولهم الجنة ونجاتهم من النار ، والقرآن يكون شفاء ورحمة لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان ، فأشرقت وتفتحت لتلقى ما فى القرآن من روح ، وطمأنينة وأمان ، ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١١٢) .

وتقديم الشفاء على الرحمة من تقديم السبب على المسبب ، لأن القلب إذا شُفى من مرض الجهل ، وسوء الاعتقاد والشك ... كان مؤهلاً لرحمة الله ، وكذلك إذا شُفى البدن من الأمراض ساعده

المجتمع ، وعندما نفكر فى العلاج يتبين أننا تركنا مبدأ من مبادئ شريعته ﷺ وهذا بعض ما يفهم من قوله ﷺ (ما تلف مال فى بر أو بحر إلا بحبس الزكاة) وقوله (كل سلامى من الناس عليه صدقة) إلى غير ذلك .

(١١٢) الرعد من الآية ٢٨ .

ذلك على التقرب إلى الله ، وهو باب الرحمة والثواب العاجل والآجل والسعادة الأبدية .

وبهذا قرر العلماء أنه (يجوز الاستشفاء بالقرآن تعليقاً وغسلاً ومسحاً بالغسالة وشرباً ، ولو فعل الإنسان ذلك بنفسه لنفسه ، كما كان ﷺ يقرأ وينفث فى يديه ويمسح بهما جسده ، وينزع ما علق إذا أراد الكنيف أو الجماع أو يستره) [١١٣] .

وبعد أن ذكرت الآية اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن بأنه لهم شفاء ورحمة أخذت فى بيان أثره على الفريق المقابل وهم الكفار ، فقال ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ فالواو هنا لعطف المقابل، وفى العطف دلالة على تضاد المعنيين ، وجاء النفى بـ (لا) لأنها لنفى الاستقبال ، وهو المناسب هنا ، ودخلت على الفعل المضارع المفيد للحدوث والتجدد ، من حيث إن كل آية تنزل يتجدد منهم تكذيب ، فيزدادون به خسارة ، لأن سماع القرآن يغيظهم ويحنقهم فيدفعهم ذلك إلى زيادة ارتكاب القبائح تمرداً وعناداً ، ونلحظ أن الفعل (يزيد) مما أضمر فيه المصدر لدلالة الفعل عليه [١١٤] ، والأصل : ولا يزيد إنزال القرآن عليك الظالمين إلا خسارا ، كقولهم: من كذب كان شرا له ، أى كان الكذب ، ومثله قوله ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ [١١٥] أى فما يزيد التخويف ، والمراد بـ (

([١١٣]) تفسير اطفيش إباضى ٢٨٨/٥ ، وينظر: تفسير الخازن ١٧٨/٣ .

([١١٤]) ينظر: كتاب دلائل الإعجاز للشيخ/ عبد القاهر ، تـح/ محمود شاكر ، ص١٧٠ ، ط المدنى .

([١١٥]) الإسراء من الآية ٦٠ .

الظالمين) المشركين وهو مفعول أول لـ (يزيد) وإنما سماهم ظالمين؛ لأنهم بكفرهم وعدم تصديقهم بالقرآن ، والعمل بما فيه ظلموا أنفسهم ، حيث حرموها من منافعه فى الدنيا،وعرضوها لعذاب الله فى الآخرة، وخسارا: أى هلاكا، يقال: خسره سوء عمله : أهلكه[١١٦] ، وهو المفعول الثانى ، ، وقيل : الخسار: النقص، كقوله ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [١١٧] ، وقوله ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ [١١٨] ، والأظهر أنه (لا يفسر الخسران هنا بالنقصان ؛ فإن ما بهم من داء الكفر والضلال حقيق بأن يعبر عنه بالهلاك لا بالنقصان المنبئ عن حصول بعض مبادئ الإسلام ، فهم فى الزيادة فى مراتب الهلاك ، من حيث إنهم كلما جددوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة ازدادوا بذلك هلاكاً) [١١٩] (وإسناد زيادة الخسران إلى القرآن ، مع أنهم هم المزدادون فى ذلك بسوء صنيعهم ، باعتبار كونه سبباً لذلك ، حيث كذبوا به) [١٢٠] فهو من المجاز العقلى لعلاقة السببية ، كقوله ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [١٢١] ، وقوله ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ [١٢٢] ،

([١١٦]) وخسارا: مصدر خسر ، يقال: خسر خُسْراً وخَسَراً وخُسْرانا وخسارة وخسارا ، وخسر كله: خل،والخسار: الضلال والهلاك.

([١١٧]) التوبة ١٢٥ .

([١١٨]) المائدة ٦٤ .

([١١٩]) البحر المديد ١١٨/٤ .

([١٢٠]) المرجع السابق .

قال الحسن (لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقص) ، والذى يتدبر الآية يجدها بنيت على المقابلة البديعية ، التى (ترقى عن هذا المستوى اللفظى ، الذى يقوم على التضـاد بـين المعـانى اللغوية للكلمات والجمل ، إلى مستوى أرحب من المفارقة التصويرية التى برز فيها التناقض بين المواقف) (١٢٣) ، والنتيجة اللافتة لهـذا هى تحريك وعى المتلقى ، وتنشيط ذهنه لما بين الأشياء من تقابـل أو تضاد ، فيقبل فى يقظة شعورية لفهم المضمون المعبر عنه مـن خلال الصيغ المثيرة للانتباه ، والداعية إلى التأمل ، فقد جاء المعنى فى جملتين خبريتين متضادتين ، جاءت الأولى عارية مـن أسـاليب التوكيد لتفيد انتفاع المؤمنين بالقرآن ، فهو لهم شـفاء ورحمـة ، بينما جاءت الثانية فى أسلوب القصر المعتمد على النفى والاستثناء ؛ لتؤكد خسارة الظالمين بسبب كفرهم، وعدم تصديقهم بالقرآن ، وفى المقابلة تعجيب من أمر القرآن حيث كونه مداراً للشفاء والشقاء:

كماء صار فى الأصداف دُرّاً وفى ثغر الأفاعى صار سُمًّا (١٢٤)

والمعول عليه هو استعداد المحل أو عدم استعداده ، فـ (لما كان قبول القابل شرطاً فى ظهور الأثر من الفاعل فلا جرم " لا يزيد " القرآن " الظالمين " الذين وضعوا التكذيب مقام التصـديق ، والشـك

---

(١٢٢) الآيتان على الترتيب : التوبة ١٢٥ ، والأنفال ٢ ، وينظر: كتاب أسـرار البلاغة للإمام عبد القاهر ، تح/ محمود شاكر ، ص ٣٨٦ ، ط أولى ١٩٩١م ، المدنى .

(١٢٣) دراسات فى المعانى والبديع ، ص٢١٣ .

(١٢٤) تفسير الألوسى ١٤٦/١٥ .

موضع الإيقان والاطمئنان " إلا خسارا " لأن البدن غير النقى كلما غذيته زدته شراً ، فلا يزال سماع القرآن يزيد المشركين غيظاً وحنقاً ، ويدعوهم ذلك إلى زيادة ارتكاب الأعمال القبيحة) فيزدادون خسارة ، وهذا من جملة شقاء الظالمين ، فما يهدى القلوب يكون سبباً لدمارهم ، والآفة منهم لا من القرآن .

ويرى الطاهر بن عاشور وغيره [١٢٥] منع الوقف على (للمؤمنين) لأن قوله (ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) فى موقع المفعول وما بعده معطوف عليه (والمفعول والظرف وسائر ما يجئ بعد تمام الجملة من معمولات الفعل مما لا يمكن إفراده عن الجملة ، وأن يعتد كلاماً على حدته) [١٢٦] ، يضاف إلى ذلك أن الوصل يجمع بين المتقابلين ، وهذا يؤدى إلى توكيد المعنى وإبرازه بالتضاد ، لأن الضد يظهر حسنه الضد ، وبناء على ما تقدم يصير الوصل أمراً مطلوباً لصحة المعنى ، ولو جاز الوقف لكان (ولا يزيد ...) مستأنفاً وهذا يجعل الضمير فى (يزيد) لا مرجع له ، وهذا مخالف لقواعد العربية .

وجملة (ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) إطناب بالتذييل، أو من باب الاحتراس، لتنفى توهم أن الظالمين قد ينفعهم القرآن ، فنفى

([١٢٥]) حيث يقول: (والمعنى: إن القرآن كله شفاء ورحمة للمؤمنين ويزيد الظالمين خسارة) [التحرير والتنوير ١٨٩/١٥ ، وتفسير أبى السعود ٢٢٩/٣] وعليه يكون القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين ، وهلاكا للمكذبين ، وهذان المعنيان المتقابلان مطلوبان ، ولا يصح الاكتفاء بأحدهما دون الآخر .

([١٢٦]) دلائل الإعجاز ص ٢٤٤ .

عنهم ذلك بهذا الأسلوب الذى قطع عنهم كل أسباب النفع ، والواو هنا للتأكيد ، فإنها جاءت لتقوى ارتباط الجملتين ، كما تأتى لتأكيد جملة الحال مع ما قبلها كقوله ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [١٢٧] وفى الجملة تأكيد الذم بما يشبه المدح ، فإن قوله (يزيد) قد يشعر بالمنفعة ، فلما انتفى ذلك بقوله (إلا خسارا) تأكد الذم ، فهذا الترقى والتأكيد فى الأسلوب أزال عن السامع ما عسى أن يتوهمه ، ووقع موقعه اللائق به ، و (خسارا) مشتق من الفعل الثلاثى (خسر) الذى يتعدى لمفعول واحد ، وقد ورد ثلاث مرات فى القرآن بمعنى الزيادة فى الخسارة ، أو الكمية المضافة من الخسارة إلى وضع كله خسارة ، ويفهم ذلك من منهجها الواضح الذى لم يتخلف ، كما يفهم أيضاً من قول العلماء فى المعنى (فزادهم ذلك خساراً إلى ما كانوا فيه قبل ذلك من الخسارة) وقولهم (فكلما جددوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة ... إزدادوا بذلك هلاكاً) [١٢٨].

الموضع الثاني : قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس ٥٧] .

هذه الآية جاءت عقب الكلام في جدال المشركين ، والاحتجاج عليهم بإعجاز القرآن على أنه من عند الله ، وأن الآتي به صادق فيما جاءهم به ، من تهديدهم من عاقبة تكذيب الأمم رسلها ، وما

([١٢٧]) الحجر آية ٤ ، وينظر: كتاب الطراز للعلوى ، ص٥٤٧ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ط أولى ١٩٩٥م .

([١٢٨]) ينظر: الفخر الرازى ٣٥/٢١ ، ونظم الدرر ١٩١/٥ .

ذيل ذلك من الوعيد وتحقيق ما توعدوا به ، فالكلام هنا منعطف إلى الغرض المفتتح بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ... ﴾[١٢٩]

والكلام المفتتح بالنداء والتنبيه من مثل " يآيها الناس " ويازيد ، وألا ونحوها لايناسب عطفه على ما قبله [١٣٠] ومعنى الآية : (يآيها الناس قد جاءكم على لسان الرسول الكريم كتاب جامع لكل ما تحتاجون إليه : موعظة تصلح أخلاقكم وأعمالكم ، وشفاء لأمراض قلوبكم من الشرك والنفاق ، والهداية الواضحة إلى الصراط المستقيم الذي يوصل إلى سعادة الدارين ، ورحمة للمؤمنين من رب العالمين)[١٣١] ، واستهلت الآية بالنداء الذي أداته " يا " وهو (حرف وضع في أصله لنداء البعيد ، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه ... ثم استعمل في مناداة من سها وغفل وإن قرب ، تنزيلاً له منزلة مَنْ بعد ، فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معني به جداً... وأي وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام ...وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه ، فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجري مجراه ، يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء ، فالذي يعمل فيه حرف النداء هو " أي "

([١٢٩]) التحرير والتنوير ١١ / ٢٠٠ والآيات من سورة يونس ٣٧ :٤٣

([١٣٠]) (وينبغى أن يعتبر افتتاح كلام بحيث لا يعطف إلا بالفاء إذا كان مترتبا عما قبله ؛ لأن العطف بالفاء بعيد عن العطف بالواو ، وأوسع من جهة التناسب) .

([١٣١]) تفسير القطان ١٩٧/٢ [الحاسب الآلى] .

والاسم التابع له صفته ، كقولك : يازيد الظريف ، إلا أن " أي " لا يستقل بنفسه استقلال " زيد " فلم ينفك من الصفة ، وفي هذا التدرج من الإبهام إلى التوضح ضرب من التأكيد والتشديد [١٣٢] ، وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين : معاضدة حرف النداء ، ومكانفته بتأكيد معناه ، ووقوعها عوضاً عما يستحقه " أي " من الإضافة) [١٣٣] .

والخطاب " يآيها الناس " يحتمل أن يكون للمشركين ، بناء على أنه الأكثر في خطاب القرآن ، وما روي أن كل شئ نزل فيه " يآيها الناس " فهو مكي ، وعليه يكون الثناء على القرآن بأنه هدى ورحمة للمؤمنين إدماجاً وتسجيلاً على المشركين بأنهم حرموا أنفسهم الانتفاع بموعظة القرآن ، وشفائه لما في الصدور الذي انتفع به المؤمنون ، ويحتمل أن يكون عاماً لجميع الناس للتعريف بشأن القرآن وهديه ، وهو الأصح ، وهو اختيار الطبري ، إذ لم يأت فيه ما يقتضي توجيهه لخصوص المشركين من ضمائر تعود إليهم ، أو أوصاف لهم ، أو صلات موصول ، وعلى هذا الوجه فليس في الخطاب التفات بخلاف الأول ، والمعنى : أن القرآن موعظة لجميع

([١٣٢]) لأن النفس تتشوق عند ذكر المبهم إلى التوضيح ، فإذا ذكر تمكن في النفس فجاء التأكيد

([١٣٣]) (فإن قلت : لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره ؟ قلت : لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة ؛ لأن ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه ، وعظاته وزواجره ووعده ووعيده واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم ، وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ، ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم غافلون) [الكشاف ٤٤/١]

الناس ، وإنما انتفع به المؤمنون فاهتدوا فكان لهم رحمة [١٣٤] وتأكيد الخبر بـ " قد " ، والفعل الماضي باعتبار أن من جملة المخاطبين منكرين أو مترددين ، استقصاء في إبلاغ ذلك إليهم ؛ لأن في المخاطبين كثيراً ممن ينكر هذه الصفات للقرآن .وعلامة الجمع في " جاءتكم " تؤكد العموم ، وهو مع " الناس " يرفع احتمال التخصيص ، والمجئ مستعمل مجازاً في الإعلام بالشئ ، كما استعمل للبلوغ أيضاً ، إلا أن البلوغ أشهر في هذا وأكثر ، يقال : بلغني خبر كذا ، ويقال أيضاً : جاءني خبر كذا ، أو أتاني ، وإطلاق المجيء عليه في هذا أعزّ ، والمراد بما جاءهم وبلغهم هو ما أنزل من القرآن وقرئ عليهم ، وقد عبر عنه بأربع صفات هي أصول كماله وخصائصه ، وهى أنه موعظة وشفاء وهدى ورحمة . [١٣٥] وتعليق فعل المجئ بضمير الناس " جاءتكم " باعتبار كونهم المقصودين بإنزال القرآن في الجملة ، ويلاحظ التقييد في الصفات الأربع ، والتي هي لموصوف واحد وهو القرآن ، ونكرت للتعظيم والتفخيم ، والصفة الأولى كونه موعظة ، والموعظة : مصدر ميمي بمعنى الوعظ ، وهو نصح بإرشاد مشوب بتحذير من لحاق ضر في العاقبة ، أو بتحريض على جلب نفع مغفول عنه ، ووصف القرآن بأنه " موعظة " وصف ذاتي له ، لأن الموعظة هي الكلام المحذر من الضر ، ولهذا عقبت بـ " من ربكم " فكانت عامة لمن خوطب بـ" يآيها الناس " والتقييد بـ" من ربكم " للتنبيه على أنها بالغة غاية كمال

([١٣٤]) ينظر : التحرير والتنوير١١/٢٠٠، تفسير الخازن٢ / ٣٠٢ ، تفسير الطبري١١/ ١٦١

([١٣٥]) ينظر : التحرير والتنوير١١/٢٠١

أمثالها ، ولتذكريهم بما يزيدهم تعظيما وقبولاً ، لأنها لم تصدر عن مخلوق تحتمل توجيهاته الخطأ والصواب ، وإنما هي صادرة من خالق النفوس ومربيها ، العليم بما يصلحها ويشفيها ، ففي التعرض لعنوان الربوبية من حسن الموقع ما لا يخفى ، ويدخل في الموعظة كل ما يوجب الرغبة في الطاعة ، والنفرة من المعصية ، وذلك بذكر الوعد والوعيد ، و"من" لابتداء الغاية ، وهي متعلقة بـ " جاءتكم " وابتداء الغاية هنا مجاز ، ويصح أن تكون للتبعيض ، فتتعلق بمحذوف على أنها صفة لـ" موعظة " أي موعظة كائنة من مواعظ ربكم [١٣٦] . والأول أولى ؛ لحاجة الثاني إلى تقدير .

والصفة الثانية " شفاء لما في الصدور " لحصول العقائد الحقة ، والأخلاق الحميدة بدل أضدادها [١٣٧] ، وهذا الوصف مترتب على قبول الموعظة ، ووقوعها في النفس ، وهو عام أيضاً ، وشفاء : مصدر جُعل وصفاً مبالغة ، أو هو اسم لما يُشفي به ، وحقيقة الشفاء : زوال المرض والألم ، ومجازه : زوال النقائص والضلالات ، وما فيه حرج على النفس [١٣٨] . ويرى البعض أن الشفاء هنا

([١٣٦])تفسير أبي السعود٤ /١٥٥ ط دار إحياء التراث العربى – بيروت– لبنان ط ثانية ١٩٩٠م .

([١٣٧]) كالطبيب يعيد الصحة بعد المرض ، والأخلاط المحمودة بدل الأخلاط الفاسدة بالمعالجات الصائبة والأدوية النافعة . [تفسير النيسابورى١١ /٩٢]

([١٣٨]) قال السعدى : (القرآن شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع ، وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني ، فإن ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب والوعد والوعيد ما يوجب للعبد الرغبة والرهبة وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير والرهبة من الشر ونمتا على تكرار ما يرد إليها من معاني القرآن أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس ،

مستعمل في مجازه ، لأنه أريد به إزالة ما يشبه المرض في الضرر ، والإهلاك من سوء الاعتقاد والشكوك والأصح أنه عام ، إذ قد (استدل بالآية على أن القرآن يشفي من الأمراض البدنية كما يشفي من الأمراض القلبية ... فعن أبي سعيد الخدري قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني أشتكي صدري ، فقال : اقرأ القرآن ، يقول الله تعالى ﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾[١٣٩] . حتى أنه يشفي من أمراض الحسد والجان ، وقد جاء العموم في قوله " وننزل من القرآن ما هو شفاء " " قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء " وقوله " شفاء " مقيد بـ" لما في الصدور " وهذا القيد علّة من قال بالمجاز ، لكن التعبير بـ " ما " مبهماً فيه مبالغة لعموم أمراض الصدر في جميع أجزائه ، وأنه شفاء عام غير مختص بمرض محدد أو جزء معين ، [١٤٠]و " لما في الصدور" بيان لمحل الشفاء، ومن قال بالمجاز يرى أن التعبير بـ "لما في الصدور" كناية عن القلب، (وإنما خص الصدر بالذكر ؛ لأنه موضع القلب وغلافه ، وهو أعز موضع في بدن الإنسان لمكان القلب فيه ، قال تعالى:﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ

...وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرفها الله غاية التصريف وبينها أحسن بيان ، مما يزيل الشبه القادحة في الحق) [تفسير السعدي ٣٦٦/١ الحاسب الآلى]

(١٣٩) عن واثلة بن الأسقع أن رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ وجع حلقه فقال : " عليك بقراءة القرآن " [شعب الإيمان للبيهقي حديث رقم ٢٤٧٥]

(١٤٠) وعليه فـ " لما في الصدور " صفة لشفاء ، فيتعلق بمحذوف ، وأن تكون اللام زائدة في المفعول

﴾[١٤١] فهو من التعبير بالمحل وإرادة الحال فيه،أو المراد بالصدور النفوس كما هو شائع عند العرب.

والصفة الثالثة " هدى " فهو سبب لحصول الهدى [١٤٢] ، والهدى عبارة عن ظهور نور الحق فى قلوب الصديقين وهى الحقيقة،وهذه الأوصاف الثلاثة (موعظة – شفاء – هدى)ثابتة للقرآن فى حد ذاته،سواء فى ذلك مَنْ قبلها ومَنْ أعرض عنها ونبذها ، إلا أن وصفه بـ "هدى" لما كان وصفاً بالمصدر المقتضى للمبالغة،بحيث كأنه نفس الهدى كان الأنسب أن يراد به حصول الهدى به بالفعل ، فيكون فى قران الوصف الرابع .

والهدى: مصدر من قولك: هديت فلانا الطريق [١٤٣] إذا أرشدته إليه ، ودللته عليه ، وبينته له – أهديه هدى وهداية [١٤٤] ، والهدى: هُديان ، هدى دلالة وهو الذى تقدر عليه الرسل وأتباعهم ، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [١٤٥] ، وقوله ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[١٤٦] ، وهدى تأييد وتوفيق ، وهو خلق الإيمان فى القلب ، وقد

([١٤١]) الآية من سورة الحج ٤٦

([١٤٢]) (وذلك أنه إذا زالت الملكات الرديئة التى طبيعتها الظلمة ، وصارت مرآة النفس مصقولة محازية لعالم القدس انطبع فيها نقش الملكوت ، وتجلى لها قدس اللاهوت)[تفسير النيسابورى١١/٩٢] .

([١٤٣]) وإلى الطريق فيتعدى بحرف وبغير حرف .

([١٤٤]) والهدى فى كلام العرب معناه: الرشد والبيان ، أى فيه كشف لأهل المعرفة ورشد ، وهو لفظ مؤنث وقيل مذكر وهو مقصور لا يظهر عليه الإعراب .

تفرد به سبحانه ، قال تعالى ﴿ أُوْلَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ (١٤٧) ، وقال ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ (١٤٨) .

والصفة الرابعة " رحمة " وهى خاصة بمن عمل بمقتضى الصفات الثلاثة الأول – وإن كان هدى للخلق – فانتفع بها فكان القرآن رحمة له فى الدنيا والآخرة ، وقيد (للمؤمنين) متعلق بـ (رحمة) بلا شبهة ؛ لأنهم هم المستحقون لها ، بسبب إيمانهم ، فهم الذين آمنوا وصدقوا بما فيه ، فكان لهم رحمة كرامة وتشريفاً لهم وبياناً لفضلهم ، قال النيسابورى: (وإنما خص المؤمنين بهذه الرحمة ؛ لأن كل روح لم يتوجه إلى خدمة أرواح الأنبياء المطهرين لم ينتفع بأنوارهم ، كما أن كل جرم لم يقع فى مواجهة قرص الشمس لا يستضئ بنورها) (١٤٩) وهو ما ذهب إليه جمهور المفسرين. ومن المحققين من جعله قيداً لـ " هدى ورحمة " نظراً إلى قوله ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٥٠) ، وقوله ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٥١) يقول الطاهر بن عاشور : (قيد " للمؤمنين " راجع إلى " هدى ورحمة " معاً إلى قاعدة القيد الوارد بعد مفردات ، وأما رجوعه إلى "

---

(١٤٥) ، (١٤٦) ، (١٤٧) ، (١٤٨) الآيات على الترتيب: الشورى ٥٢ ، الرعد ٧ ، البقرة ٥ ، القصص ٥٦ .

(١٤٩) تفسير النيسابورى ٩٢/١١.

(٦) ، (١٥١) الآيتان على الترتيب : البقرة ٢ ، لقمان ٣ .

شفاء " فمحتمل ، لأن وصف " شفاء " قد عقب بقيد " لما فى الصدور " فانقطع عن الوصفين الذين بعده ، ولأن تعريف " الصدور " باللام يقتضى العموم ، فليحمل الشفاء على معنى الدواء الذى هو صالح للشفاء للذى يتناوله ، وهو إطلاق كثير) [١٥٢] .

ونلحظ عطف الصفات بعضها على بعض بالواو ، وهذا العطف يفيد جمع القرآن لخصائص كل صفة منها من ناحية ، وأنه جامع لهذه الصفات من ناحية أخرى[١٥٣]، وفى الآية عموم وخصوص، حيث عمم فى كونه " موعظة وشفاء " وخصص فى "هدى ورحمة".

وتقديم الموعظة والشفاء على الهدى والرحمة من تقديم العام على الخاص ، فضلاً عن كون الرحمة مسببة عن الهدى ، وهذا منتهى البلاغة وصحة التقسيم (ويتفرع على كون القرآن هدى ورحمة للمؤمنين تنبيههم إلى أن ذلك فضل من الله عليهم ورحمة بهم يحق لهم أن يفرحوا بهما ، وأن يقدروا قدر نعمتهما ، وأن

([١٥٢]) التحرير والتنوير ٢٠٣/١١.

([١٥٣]) (فالقرآن جامع للحكمة العملية الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها المرغبة فى المحاسن والزاجرة عن القبائح ، والحكمة النظرية التى هى شفاء لما فى الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد ، وهدى إلى الحق ، واليقين ورحمة للمؤمنين ، حيث أنزلت عليهم فنجوا بها من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان ، وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان) [تفسير البيضاوى ٩٥/٣] .

يعلموا أنها نعمة تفوق نعمة المال التى حرم منها أكثر المؤمنين ومنحها أكثر المشركين)[١٥٤] .

الموضع الثالث : فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت ٤٤] .

ذكر العلماء أقوالاً متعددة فى سبب نزول هذه الآية [١٥٥] ، فقد قال القرطبي (ت٦٧١هـ) إن سعيد بنَ جبير قال : قالت قريش : لولا أنزل القرآن أعجمياً وعربياً ، فيكون بعض آياته عجمياً ، وبعضه عربيا ، فنزلت الآية [١٥٦] وانتقد الرازي هذا الرأي بقوله (وعندي أن أمثال هذه الكلمات فيها حيف عظيم على القرآن ، لأنه يقتضي ورود آيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض ، وأنه يوجب أعظم أنواع الطعن ، فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطعن ادعاء كونه

([١٥٤]) التحرير والتنوير ١١/٢٠٣، ٢٠٤.

([١٥٥]) قال ابن عطية : (هذه الآية نزلت بسبب تخليط كان من قريش في أقوالهم من أجل الحروف التي وقعت في القرآن ، وهي مما عُرب من كلام العجم ، كالسجين والاستبرق ونحوه) [المحرر الوجيز١٤ /١٩٣] ، وروى ابن العربي وغيره أن قريشا قالوا : إن الذي يعلم محمداً يسار أبوفكيهة –مولى من قريش – وسلمان ، فنزلت هذه الآية ، قال البغوي : " قال مقائل : وذلك أن رسول اللهﷺ كان يدخل على يسار – غلام عامر بن الحضرمي – وكان يهودياً أعجميا ، يكنى أبا فكيهة ، فقال المشركون : إنما يعلمه يسار ، فضربه سيده ، وقال : إنك تعلم محمداً ؟ فقال يسار : هو والله يعلمني ، فأنزل الله تعالى هذه الآية " [ينظر : أحكام القرآن لابن العربي ٤ /١٦٦٤]

([١٥٦]) تفسير القرطبي ٨ /٣١٢ .

كتاباً منتظماً ، فضلاً عن ادعاء كونه معجزاً) [١٥٧] ثم يذكر رأيه بقوله : (الحق عندنا أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد على ما حكي الله تعالى عنهم من قولهم ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ فالآية متعلقة بهذا الكلام وجواب عليه ، والتقدير : أنا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا : كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب ؟ ويصح لهم أن يقولوا : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ أي من هذا الكلام ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ منه ؛ لأنّا لا نفهمه ، ولا نحيط بمعناه ، أما لما أنزلنا هذا الكتاب بلغة العرب وبألفاظهم ، وأنتم من أهل هذه اللغة ، فكيف يمكنكم ادعاء أن قلوبكم في أكنة منها ، وفي آذانكم وقر منها ، فظهر أنّا إذا جعلنا هذا الكلام جواباً عن هذا الكلام بقيت السورة من أولها إلى آخرها على أحسن وجوه النظم) [١٥٨] والمجئ بالواو في صدر الآية لتأكيد استمرار وتوالى سلسلة الاعتراض والتعنت ، وأنه لا يعجبهم شئ ، وأن الاستجابة لمقترحاتهم لا تمنع الجدل منهم ، والغرض – هنا – فيه مجاراة السائل ، وإنصافه بالأدلة لإدحاضه ، فضلاً عن أن ما يعترضون عليه فيه مصلحة لهم ، والآية في مجملها لبيان أن آيات الله على أي وجه جاءتهم وجدوا فيها متعنتا يتعللون به ؛ لأنهم غير طالبين للحق ، ولذا وجدت الآيات في آذانهم وقراً ، وعلى قلوبهم عمىً ، وكلمة " لو " تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره ، وهذا يدل على

([١٥٧]) تفسير الرازي ١٣٣/٢٧.

([١٥٨]) تفسير الرازي ١٣٣/٢٧.

أنه تعالى ما جعله قرآناً أعجمياً ، فالكلام جار على طريقة الفرض لما هو مقتضى حرف لو الامتناعية ، والمعنى : لو نزلنا جبريل بالقرآن على غير مجرى لغة العرب ، فجعلنا هذا الكتاب الذي تقرؤه عليهم بلغة غير لغتهم .... وهو جواب لقولهم : هلا أنزل القرآن بلغة العجم ... وجَعْل القرآن بلغتهم فيه مصلحتهم (إذ نعمة الرسالة في الإبلاغ والإفهام ، فالرسول يكلمهم بلسانهم ، فيفهمون جميع مقاصده ، ويدركون إعجاز القرآن ، ويفوزون بمزية نقل هذا الدين إلى الأمم ، وهذه المزية ينالها كل من تعلم اللسان العربي كغالب الأمم الإسلامية ، ولذلك كان تبليغ الإسلام بواسطة أمة كاملة فيكون نقله متواتراً ، ويسهل انتشاره سريعا)(١٥٩)

وقوله (ولو جعلناه) من معاني الجعل النقل والتصيير من حال إلى حال ، فيتعدى إلى مفعولين ، وهو هنا من هذا الباب ، أي : لو صيرناه يقرأ بلسان غير عربي لقالوا ...ومعاني القرآن التي جاء من أجلها موجودة في الكتب السالفة ، بدليل قوله ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾(١٦٠) ، وقوله ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾(١٦١) وقوله ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ (١٦٢) . والضمير في " جعلناه " للذكر ؛ لقوله قبل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا

---

(١٥٩) التحرير والتنوير ٢ /٤٢.

(١٦٠) سوره الشعراء الآية ١٩٦

(١٦١) سورة الأعلى الآية ١٨

(١٦٢) سورة المائده الاية ٤٨

جَاءهُـمْ... ﴾ وتفسير الزمخشري " جعلناه " بخلقناه [١٦٣] (مـردود صناعة ومعنى أما الصناعة لأنه يتعدى لمفعولين ، ولو كان بمعنى الخلق لم يتعد إلا إلى واحد ، وتعديته لمفعولين – وإن احتمل هذا المعنى – لكن بجواز إرادة التسمية أو التصيير ... وأما المعنى فلو كان بمعنى خلقنا التلاوة العربية فباطل ؛ لأنه ليس الخلاف في حدوث ما يقوم بألسنتنا، وإنما الخلاف في أن كلام الله الذي هو أمره ونهيه وخبره فعندنا أنه صفة من صفات ذاته وهو قديم) [١٦٤] وقوله ﴿ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً ﴾ أي لا يفصح ولا تبين معانيه لهم ، لكونه بلغة غير لغتهم ، وهذا دليل على أن القرآن عربي ، وأنه نزل بلغة العرب قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ [١٦٥] وقال : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ [١٦٦] وقال : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ [١٦٧] وأنه إذا نقل إلى غيرها لم يكن قرآنا[١٦٨] فلا شك أن الترجمة ليست بقرآن ، وإن كان هو المعنى القائم بصاحبه ...فإن قيل : هو المعنى المعبر عنه بأى لغة كان ؟ قلنا : لاشك في اختلاف الأسامي باختلاف اللغات ، وكما لا يسمى القرآن بالتوراة لا تسمى التوراة بالقرآن ، فالأسماء لخصوص

([١٦٣]) الكشاف ٤١١/٣.

([١٦٤]) البرهان للزركشي تح / محمد أبو الفضل إبراهيم ١٣١/٤

([١٦٥]) سورة الزخرف الآية ٣

([١٦٦]) سورة فصلت الآية ٣

([١٦٧]) سورة مريم الآيه ٩٧

([١٦٨]) تفسير القرطبي ٨ /٣١١ .

العبارات فيها مدخل ، لا أنها لمجرد المعنى المشترك [١٦٩] وقال الآلوسي: (وفيه بحث ، فإن قوله : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا ﴾ يستلزم تسميته قرآنا أيضا لو كان أعجمياً ، فليس لخصوص العبارة العربية مدخل في تسميته قرآناً ، والحق أن قرآناً المنكر لم يعهد فيه نقل عن المعنى اللغوي فيتناول كل مقروء ، أما القرآن باللام فالمفهوم منه العربى في عرف الشرع فلخصوص العبارة مدخل في التسمية نظراً إليه ، وقد جاء كذلك في الآية الدالة على وجوب القراءة أعني قوله : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ [١٧٠] وبذلك تم المقصود) [١٧١] .

وقوله (قرآنا أعجميا) المقابل للعربي الأعجمي ، والعربية العجمي ، فوصف القرآن بما يوصف به العاقل ، والقرآن جدير بهذا الوصف ، فليس شئ أدق وأفضل وأحسن في المعاني والأوصاف من القرآن الكريم ، وفيه تذكير بنعمة الله عليهم أن جعل القرآن عربيا بلسانهم ، فقد جاءهم بلغة كثيرة المعاني ، واسعة الأفنان ، فصيحة الألفاظ ، فكانت سالمة من التباس الدلالة ، وانغلاق الألفاظ ، مع

([١٦٩]) قال ابن العربي : (قال علماؤنا : هذا يبطل قول أبي حنيفة في قوله : إن ترجمة القرآن بإبدال اللغة العربية فيه بالفارسية جائز ؛ لأن الله تعالى قال : " ولو جعلناه قرآناً أعجميا لقالوا " كذا لنفي أن يكون للعجمة إليه طريق ، فكيف يصرف إلى ما نهي الله عنه ، فأخبر أنه لم ينزل به ، وقد بيناه في مسائل الخلاف ، وأوضحنا أن التبيان والإعجاز إنما يكون بلغة العرب ، فلو قلب إلى غير هذا لما كان قرآناً ولا بياناً ، ولا اقتضى إعجازاً) . [أحكام القرآن ٤ /١٦٦٥]

([١٧٠]) المزمل من الآية ٢٠

([١٧١]) تفسير الألوسي ١٩ /١٢٦

وفرة المعاني غير المتناهية في قلة التركيب ، فكان وصفه بأنه عربي ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ من مكملات الإخبار عنه بالتفصيل ، وقد تكرر التنويه بالقرآن من هذه الجهة ، قال تعالى : ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[١٧٢] . وقوله (لقالوا) اللام واقعة في جواب " لو " وهي داخلة على محذوفه تقديره : لأنكروا وقالوا[١٧٣] ، والتعبير بالماضي دلالة على تبييت النية على الاستمرار في الجحود ، وأن هذه طريقتهم في العنت والجدل ، وأن هؤلاء القوم لا تجدي معهم الحجة ، ولاينقطعون عن الجدال الذي لا يريدون به طلب الحق ، فهم لا يصغون إليه عربياً ، وهم يخافون منه لأنه عربي ، يخاطب فطرة العرب بلسانهم ، فيقولون : ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [١٧٤] والتعبير بالقول فيه بيان أنه لاحجة لهم إلا القول والإنكار ، والضمير عائد إلى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ وهم كفار مكة ، وإنما اكتفى بالضمير دون التصريح بهم لدلالة ما قبله عليه، ولأن دحض حججهم وإبطال مقالهم من أسمى غايات القرآن وأقوى بيانه ، وأنهم الأصل في هذا العناد ، وغيرهم تبع لهم .

وقوله ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ قال الزمخشري : (كانوا لتعنتهم يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم ، فقيل : لو كان كما يقترحون

([١٧٢]) الشعراء ١٩٥.

([١٧٣]) (وزعم أبو الفتح أن اللام بعد لو ولولا ولوما جواب قسم مقدر ، وفيه تعسف) [مغني اللبيب ٨٨/١]

([١٧٤]) فصلت من الآية ٢٦

لم يتركوا الاعتراض والتعنت ، وقالوا : لولا فصلت آياته ، أى بينت ولخصت بلسان نفقهه) [١٧٥] فإننا عرب لا نفهم الأعجمية ، ولولا : في أصلها حرف تحضيض ، تفيد الحث على الفعل ، وتختص بالمضارع ، وما في تأويله ، كقوله :﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ ﴾ [١٧٦] فإن دخلت على الماضي أفادت التوبيخ والتنديم ، نحو : ﴿ لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ [١٧٧] لأن الحض على أمر فات يستفاد منه اللوم والتوبيخ على تركه ، ففقدان الشئ المرغوب فيه يوحي بشدة التنديم واللوم والتوبيخ [١٧٨] والتعبير بصيغة (فُصّلت) تنبئ عن شدة البيان والإيضاح أي هلا جاء عربياً فصيحاً مفصلاً دقيقاً ، والمقصود بـ(آياته) هنا ألفاظه وعبارته، والتفصيل التبيين والخلو من الالتباس ؛ وحَذْف جواب " لولا " كثير في لسان العرب ، وفيه تدليل وبيان على هذه الدعوى المفترضة ، ببيان أن المعنى بالحذف ظاهر لايحتاج إلى بيان .

وقوله :﴿ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ ؟ بهمزتين الأولى للاستفهام الإنكاري ، والثانية من أصل الكلمة ، والمعنى : ولو جعلنا القرآن المنزل إليهم أعجميا لأنكروا وقالوا : لولا فصلت آياته ، وقالوا أيضا : أأعجمي وعربي ؟ أى أقرآن أعجمي ورسول عربي ، أو ومرسل

([١٧٥]) الكشاف ٣٩٣/٣.

([١٧٦]) النمل ٤٦ .

([١٧٧]) سورة النور من الآية ١٣

([١٧٨]) ينظر : الجني الداني ٦٠٦ ، البرهان للزركشي ٣٧٧/٤، ٣٧٨

إليه عربي ، ونحن عرب مالنا وللعجمة ؟ هذا على أن الكلام مشتمل على جملتين ، وعلى أن المقول جملة واحدة ، فـــ(أعجمى) قـــرئ بهمزة واحدة هي من أصل الكلمة على الإخبار، وعليـــه فالتفصـــيل بمعنى التفريق والتمييز والتنويع ، والمعنى : لـــو جعلنـــاه أعجميـــاً لقالوا : لولا تنوعت آياته بأن جاء بعضها عربيا لإفهـــام العـــرب ، وبعضها أعجميا لإفهام العجم ، فإنه يدعي أنه مبعوث إلـــى العـــرب والعجم ، وعليه ففصل (أعجمي وعربي) عما قبله للتفصـــيل بعـــد الإجمال أو الإيضاح بعد الإبهام ، وفي الكلام إيجاز بحذف المسند إليه دل عليه سياق الكلام ، أي بعضه أعجمي ، وبعضه عربي ، ورجـــح ابن عطية حمل الكلام على الاســـتفهام [١٧٩] وقـــال أبوحيـــان: (ولا يصح هذا التقسيم [١٨٠] لأنه بالنسبة للقرآن ،وهم إنما قالوا مـــا دل عليه قوله ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا ﴾ من اقتراحهم أن يكون أعجميـــا ، ولم يقترحوا أن يكون القرآن أعجمياً وعربيا) [١٨١] وقال الطبري : (والصواب من القراءة في ذلك عندنا القراءة التـــى عليهـــا قـــراء الأمصار ؛ لإجماع الحجة عليها على مذهب الاستفهام) [١٨٢]

والأعجمي : في الأصل يقال لذات مَنْ لايفصح عـــن مـــراده بلغة لسانه ، وإن كان من العرب بطريق الاستعارة تشبيها له بكـــلام

([١٧٩]) ينظر: المحرر الوجيز ١٩٣/١٤ .

([١٨٠]) يقصد بالتقسيم هنا ما قاله بعض العلماء من أن المعنى : لولا فرقت آياتـــه فجعل بعضها أعجميا وبعضها عربيا .

([١٨١]) البحر المحيط ٤٨٠/٧ .

([١٨٢]) تفسير الطبري ١٥٨/٢٣ .

مَنْ لا يفصح ، من حيث إنه لا يفهم مقصوده بالنسبة إلى العرب[١٨٣]ونلحظ أن مقتضى الظاهر أن يقال : أأعجمي وعرب[١٨٤] ، ولكنه جاء بالإفراد والمرسل إليهم جمعا ؛ لأن المراد بيان التنافي والتنافر بين الكلام والمخاطب به ، لا بيان كون المخاطب واحداً أو جمعاً [١٨٥] ، (والمقصود من الجملة الشرطية إبطال مقترحهم ، وهو

([١٨٣]) والأعجمي : أصله بلا ياء ، ومعناه من لايفهم كلامه للكنة أو لغرابة لغته ، وزيدت الياء للمبالغة في الصفة نحو أحمرى في أحمر ، وزعم بعضهم أن الياء فيه بمنزلة ياء كرسي وبختي ، قال الألوسي : وهو وهم ، والأعجم ضد الفصيح ، وهو الذي لا يبين كلامه ، ويقال للحيوان غير الناطق أعجم ومنه " صلاة النهار عجماء " أي لا يجهر فيها بالقراءة ، فكانت النسبة إلى الأعجم آكد ، لأن العجمي الذي ليس من العرب قد يكون فصيحا بالعربية ، والعربي قد يكون غير فصيح . [ينظر : تفسير الألوسي ١٢٩/٢٤ ، تفسير البحر المحيط ٤٨٠/٧]

([١٨٤]) وأظن أن المعارضة بين القرآن والمرسل إليهم ، وأن الرسولﷺ في جانب القرآن ، فهو معتبر معه .

([١٨٥]) قال الزمخشرى : (فإن قلت : كيف يصح أن يراد بالعربى المرسل إليهم وهم أمة العرب ؟ قلت : هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتابا عجميا كتب إلى قوم من العرب ، يقول : كتاب أعجمى ومكتوب إليه عربي ؟ وذلك لأن مبنى الإنكار على تنافر حالتى الكتاب والمكتوب إليه ، لا على أن المكتوب إليه واحد أو جماعة ، فوجب أن يجرد لما سيق إليه من الغرض ، ولا يوصل به ما يخل غرضاً آخر ، ألاترك تقول وقد رأيت لباساً طويلاً على امرأة قصيرة : اللباس طويل واللابس قصير ، ولو قلت : واللابسة قصيرة جئت بما هو لكنة وفضول قول ، لأن الكلام لم يقع في ذكورة اللابس وأنوثته ، إنما وقع في غرض وراءهما) [الكشاف ٣٩٣/٣]

كونه بلغة العجم ، لاستلزامه المحظور ، وهو فوات الغرض منه ، إذ لا معنى لإنزاله أعجميا على مَنْ لا يفهمه ، أو الدلالة على أنهم لا ينفكون عن التعنت ، فإذا وجدت الأعجمية طلبوا أمراً آخر وهكذا)[١٨٦] والطباق بين " أعجمي وعربي " فيه تذكير بنعمة الله عليهم ، إذ أنزل القرآن عليهم بلغتهم ليفهموه ، ويتدبروا أحكامه ، وليتقرر به معنى الإعجاز ، إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظماً ونثراً ، وإذا عجزوا عن معارضته كان أدل على أنه من عند الله ، ولو كان بلسان العجم لقالوا : لا علم لنا بهذا اللسان .

وقوله ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ، ونلحظ أنه بعد الحديث عن حكاية مقترح الكفار ، وبيان بطلانها وتعنتهم عدل إلى خطاب النبي ﷺ وهذا من الالتفات ، الذي هو (انصراف المتكلم من الإخبار إلى المخاطبة) [١٨٧] أو هو انتقال من مخاطبة النبي ﷺ في قوله ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ... ﴾ ثم اعترض بما حكاه عن مقولة الكفار ، ثم عاد لمخاطبته ﷺ مرة ثانية [١٨٨] والغرض من هذا الاعتراض بيان ما يضمره هؤلاء الكفار من عناد وإنكار ظاهر من مقترحهم الباطل ، والمعنى : قل يا محمد هذا القرآن على ما هو عليه من العلو الذي لا يمكن أن يكون شئ يناظره

، وينظر: روح المعانى ١٢٩/٢٤ ، قال أبو حيان : (وهو حسن إلا أن فيه تكثيراً على عادته في حب الشقشقة والتفهيق) [البحر المحيط ٤٧٠/٧] .

(١٨٦) تفسير الألوسي ١٣٠/٢٤ .

(١٨٧) العمدة لابن رشيق٤٥/٢، ٤٦،نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص٥٣

(١٨٨) ينظر : المثل السائر ١٧٠/٢ ،

– هو للذين آمنوا بالله ورسوله ، وصدقوا بما جاءهم به من عند ربهم هدى [١٨٩] أى يهديهم إلى الحق ، وقيل (معنى كونه هدى لهم أنه يزيدهم هدى على ما لديهم من الهدى ؛ لقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾[١٩٠] أو هدى للناس الذين صاروا متقين بهذه الهداية ، كما تقول: هديت مهتدياً ، أو كتبت مكتوباً ، على معنى أنى هديت شخصاً صار مهتدياً بهذه الهداية ، وكتبت خطاباً صار مكتوباً بهذه الكتابة ، وهو أسلوب عربى صحيح ، كما ورد فى حديث " مَنْ قتل قتيلاً فله سَلَبُه " [١٩١] ، وهو أى القرآن شفاء لما فى صدورهم من الكفر والجهل والشك والريب ، فآذانهم به سميعة، وقلوبهم له واعية، وهو لهم بصائر[١٩٢].

([١٨٩]) أى يهديهم لطريق الرشد ، والصراط المستقيم ، ويعلمهم من العلوم النافعة ما به تحصل الهداية التامة ، فهم يخرجون به من الظلمات إلى النور ، ويهتدوا به إلى خالقهم ، وإلى دار كرامته ، فهو هدى وتوفيق ورحمة ، لكن للمؤمنين به ، أما المكذبون به ، والمستكبرون عنه فلا يزيدهم إلا عمى وخسارة .

([١٩٠]) محمد ١٧ .

([١٩١]) التفسير الوسيط لسيد طنطاوى ١٤/١ والحديث فى صحيح البخارى حديث رقم ٢٠٩٧ .

([١٩٢]) (قال القشيرى: فهو شفاء للعلماء حيث استراحوا من كد الفكرة وتحير الخواطر ، وشفاء لضيق صدور المريدين بما فيه من التنعيم بقراءته ، والتلذذ بالتفكر فيه ، ولقلوب المحبين من لواعج الاشتياق بما فيه من لطائف المواعيد ، ولقلوب العارفين بما يتوالى عليها من أنوار التحقيق وآثار خطاب الرب العزيز) [نظم الدرر للبقاعى ٣٦٨/٧ (الحاسب الآلى)] .

وكون القرآن شفاء للمؤمنين إما أن يكون حقيقة ، أى يشفيهم مما كانوا فيه من النفاق والشرك ، ومما مرضان ، وإن كان النفاق دون الشرك[١٩٣]، أو يشفيهم من الأسقام والأوجاع البدنية[١٩٤]، وإما أن يكون مجازاً فيكون الشفاء (مستعار للبصارة بالحقائق وانكشاف الالتباس عن النفس كما يزول المرض عند حصول الشفاء، يقال: شُفيت نفسه إذا زال حرجه) [١٩٥] ففى الكلام استعارة تصريحية ، شبه إزالة القرآن لهذه القبائح من النفاق والشرك والجهل بالشفاء الذى هو إزالة الدواء للداء ، وهذه الاستعارة تبرز أهمية القرآن ، وتدعو إلى التمسك به لما له من أثر ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[١٩٦]، وإنما كان القرآن هدى وشفاء للذين آمنوا (لأنه خطاب حبيبهم، وكتاب مشوقهم ، يستلذونه من حيث العبارات ، ويعرفونه من حيث الإشارات) [١٩٧] ، ونلحظ أن القرآن عدل عن حكايته لمقولة الكفار ، وما يمكن أن يرتب عليها إلى خطابه ﷺ بالأمر (قل) لبيان دواعى مقولتهم من خلال بيان أثر

---

(١٩٣) قال تعالى ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ فكما أن المريض ليس كالصحيح ، كذلك الذى قلبه على الكفر ليس كالذى قبله على الإيمان .

(١٩٤) والقلبية ؛ لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق ، وقبائح الأعمال ، ويحث على التوبة النصوح التى تغسل الذنوب .

(١٩٥) قال قيس بن زهير: شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفى من حذيفة قد شفانى ونظيره قولهم: شفى غليله ، وبرد غليله ، فإن الكفر كالداء فى النفس ، لأنه يوقع فى العذاب ، ويبعث على السيئات [التحرير والتنوير ٣١٥/٢٤] .

(١٩٦) الرعد من الآية ٢٨ .

(١٩٧) البحر المديد ٤١٠/٥ .

القرآن على القلوب ، فقلوب المؤمنين به يكون لها هدى وشفاء، وقلوب المنكرين الجاحدين يكون عليها عمى، وعبر بالضمير العائد على القرآن لتقدم مرجعه لفظاً ، وأرشدت إليه قرينة الحال ، وقدّم الجار والمجرور (للذين آمنوا) للتخصيص ، وفى تنكير " هدى وشفاء " معنى التعظيم، وهو من عطف المفردات، وفى قوله (آمنوا) حذف للمتعلق بالفعل ، وفيه دلالة على أنهم آمنوا بكل ما أمر الله عز وجل الإيمان به لم يتركوا منه شيئاً ؛ لأنهم لو تركوا شيئاً لم يدخلوا فى زمرة اللذين آمنوا ، فحذف المتعلق أثبت لهم الإيمان المطلق .

وقوله ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ الواو للاستئناف ، ويقال: واو الابتداء [١٩٨] وسميت بواو الاستئناف لئلا يتوهم أن ما بعدها معطوف على ما قبلها ، و " الذين " مبتدأ ، و " لا يؤمنون " صلة الموصول ، وهو يفيد أنهم قوم مخصوصون ، وأن الشقاء كتب عليهم أزلاً ، فهم ليسوا من أهل الإيمان أبدا ، و " فى آذانهم " جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم ، و " وقر " مبتدأ مؤخر لكونه نكرة ، والجملة من المبتدأ المؤخر وخبره المقدم خبر المبتدأ الأول ، وجاء التعبير باسم الموصول (الذين) لعدم علم المخاطب بالأحوال المختصة به سوى الصلة ، وإذا كان هذا هو الأصل فى استعمال الموصول ، فإنه قد أفاد بجانبه الإشارة إلى نوع الخبر المحكوم به

([١٩٨]) وهى الواو التى يكون ما بعدها جملة غير متعلقة بما قبلها فى المعنى ، ولا مشاركة له فى الإعراب ، ويكون بعدها الجملتان الاسمية والفعلية [الجنى الدانى ١٦٣] .

على المسند إليه ، من حيث كونه مدحاً أو ذماً ... يقول السبكى (ت ٧٧٣هـ) (فإن فيه إيماءً أى إشارة إلى أن الخبر الآتى بعد الموصول وصلته من جنس تلك الصلة ومتوائم معها) [١٩٩] فمضمون الصلة وهو نفى الإيمان إيماء وإشارة إلى أن الخبر المترتب عليه ذم وعقاب لا مدح وثواب ، وجاءت (لا) فى صدر الصلة لتفيد القطع فى الثبوت من حيث صراحتها فى النفى ، وأن هذه الصفة واقعة عليهم وملازمة لهم ، ودخولها على المضارع أفاد تجدد نفى حصول الإيمان منهم كلما دعوا إليه ، و (فى آذانهم) بيان لمحل الوقر ، والوقر: الثقل فى الأذن المانع من السمع ، وفى الكلام استعارة ، حيث شبه المنكرين فى إعراضهم عن القرآن وعدم قبوله بمن فى أذنه صمم ، فهم لا يسمعون سماعاً ينفعهم ؛ لأنهم بادروا إلى رده ، وتكبروا عليه ، فصاروا لا يقدرون على تأمله ، فهزهم الكسل ، وأصمهم الفشل ، فعزّ عليهم فهمه ، وذكر قوله (فى آذانهم) من قبيل أصغيت إليه أذنى ، فالوقر لا يكون إلا فى الأذن ، فَذِكْره مع جواز الاستغناء عنه للعلم به ، لأجل ذمهم والتشنيع عليهم فى أنهم لم يستخدموا نعم الله فيما خلقت له ، والمراد التمثيل والتشبيه ، ولو كان المراد به التحقيق لكان عذراً لهم فى الإعراض ، وهو من قولهم " قلوبنا فى أكنة ... آذاننا وقر " إذ قد أرادوا من ذلك صد النبى – ﷺ– وتيئيسه من إجابته لما يدعوهم إليه .

وقوله (وهو عليهم عمى) معطوف على (الذين لا يؤمنون) لأنهم لما صموا آذانهم عن القرآن عموا عنه ، فلم ينتفعوا به ،

([١٩٩]) عروس الأفراح ٣٠٨/١ .

فجمع لهم العمى إلى الصمم [٢٠٠] ومجئ المسند إليه ضمير غيبة عائداً على القرآن أشاع جواً من الهيبة له ، (وجئ بـ "على" فى " عليهم عمى " للدلالة على استيلاء العمى عليهم ، ولم يذكر حال القلب لما علم من التعريض فى قوله ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء ﴾ بأنه لغيرهم مرض فظيع [٢٠١] ، فهو مستعل على أبصارهم وبصائرهم لازم لهم ، فهم لا يعونه حق الوعى ، ولا يبصرون الداعى إليه حق الإبصار ، فلهم به ضلال وداء ، ولذلك قالوا ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ وذلك لما يحصل لهم من الشبه التى هيئت قلوبهم لقبولها ، أو يتمادى بهم فى الأوهام التى لا يألفون سوى فروعها وأصولها ، فقد بان لأن سبب الوقر فى آذانهم الحكم بعد إيمانهم للحكم بإشقائهم [٢٠٢] ، وقدم للاختصاص و(عمى) قرأ الجمهور بفتح الميم منوناً ، مصدر عَمِى يَعْمَى عَمىً ، أى ذو عمى على معنى : عميت قلوبهم عنه ، وفى المفردات أنه محتمل لعمى البصر والبصيرة معاً ، وقرأ ابن عباس وغيره (عَمٍ) بكسر الميم وتنوينه منقوصاً ، وقرأ عمرو بن دينار ، ووردت أيضاً عن ابن عباس (عمى) بكسر الميم وفتح

---

(٢٠٠) وجوز ابن الحاجب أن يكون (وهو عليهم عمى) مرتبطاً بقوله ﴿هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء ﴾ ، والتقدير: هو للذين آمنوا هدى وشفاء وعلى الذين لا يؤمنون عمى ، وقوله (والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر) معترضة على الدعاء ، وتعقب بأن هذا وإن جاز من جهة الإعراب لكنه من جهة المعانى مردود لفك النظم ، وزعم بعضهم أن ضمير هو عائد على الوقر [تفسير الألوسى ٢٤/١٣٠].

(٢٠١) تفسير الألوسى ٢٤/١٣٠ .

(٢٠٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعى ٧/٣٦٨ ، البحر المحيط ٧/٤٨١ .

الياء فعلاً ماضيا ، كقوله ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ [هود ٢٨] أى لم تتبين لكم ، واختار أبو عبيدة القراءة الأولى ، لإجماع الناس عليها ، ولقوله " هدى وشفاء " ولو قال: هاد وشاف لكان الكسر فى (عَمٍ) أجود ، ليكون نعتاً مثلهما ، والمعنى: والذين لا يؤمنون فى ترك قبوله بمنزلة مَنْ فى آذانهم وقر ، وهو – يعنى القرآن – عليهم ذو عمى ، لأنهم لا يفقهون ، وفى (عمى) استعارة شبههم فى عدم الاهتداء ، والتخبط والحيرة فى أمرهم بالأعمى ، وهى تظهر مدى حماقة هؤلاء القوم وشناعة فعلهم ، وقد ظهر ذلك واضحاً من نظم الآيات ، حيث تركت خبر (إن) ومضت فى وصف الذكر الذى كفروا به لتفظيع فعلتهم وتشنيعها ، وفى النظم مقابلة ثلاثية ، حيث قابل (الذين آمنوا) بـ (الذين لا يؤمنون) و(هدى) بـ (عمى) و (شفاء) من الأمراض التى منها الوقر الذى أصاب الذين لم يؤمنوا ، وهذه المقابلة أظهرت أن تلك الخصال العظيمة للقرآن حرمهم كفرهم الانتفاع بها ، وانتفع بها المؤمنون ، فكانت لهم شفاء ، أما مَنْ أنكروا وأعرضوا عنه ، وصمّوا آذانهم ، ولم يسلكوا طريقا إلى سماعه أو تدبره كان عليهم عمى .

ولما ظهر بهذا بعد الذين لم يؤمنوا به عن عليائه ، وطردهم من فنائه ، قال ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أى أولئك البعداء البغضاء مثالهم مثال مَنْ يناديهم ممن يريد نداءهم غير الله من مكان بعيد ، و (أولئك) مبتدأ وهو إشارة إلى الموصول الثانى ، باعتبار اتصافه بما فى حيز صلته ، وملاحظة ما أثبت له ، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه ، للإيذان ببعد منزلته فى الشر مع ما فيه

من كمال المناسبة للنداء من مكان بعيد ، أى أولئك البعداء الموصوفون بما ذكر من التصام عن الحق الذى يسمعونه ، والتعامى عن الآيات التى يشاهدونها ينادون من مكان بعيد [٢٠٣] ، والتعبير بالمضارع (ينادون) إشارة إلى تكرار الدعاء ، وهذا النداء إما أن يكون فى الدنيا ، ففيه تسجيل لكفرهم ، وإصرارهم عليه ، ويكون فى الكلام استعارة ، حيث شبههم فى عدم قبولهم الإيمان ، وأنهم لا يرعونه أسماعهم بمن ينادى من مسافة بعيدة لا يُسمع من مثلها الصوت ، وإن سمعه لا يعى تفاصيله ولا معانيه [٢٠٤] ، مع تكرار المناداة ، وإما أن يكون فى الآخرة ، وفيه إشارة إلى ما يحدث من الخلق من تناد فيه [٢٠٥] ، ويكون قوله (من مكان بعيد) حقيقة ، أى ينادون وهم فى جهنم ، كما دل عليه قوله ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [٢٠٦] ، وقوله ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [٢٠٧] ، وقوله ﴿ وَنَادَى

([٢٠٣]) تفسير الألوسى ١٣٠/٢٤ ، تفسير أبى السعود ١٧/٨ ، وينظر: الكشاف ٣٩٤/٣ .

([٢٠٤]) وقد حكى أهل اللغة أنه يقال للذى لا يفهم: أنت تنادى من مكان بعيد ، كأنه من موضع بعيد ، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه ، وحكى النقاش ، كأنما ينادون من السماء] ينظر: البحر المحيط ٤١٨/٧ ، وتفسير الألوسى ١٣٠/٢٤ ، والكشاف ٣٩٤/٣ .

([٢٠٥]) لأن الخلق يتنادون فيه ، فمن مستشفع ، ومن متضرع ، ومن مسلم ومهنئ ، أو موبخ أو معتذر .

أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ... ﴾ [٢٠٨] ، ولما كانت المناداة يوم القيامة جاء بالفعل المستقبلى ، وحذف المتعلق وهو يوم القيامة للعلم بـه ، ولأنه يوم الجزاء الحق وقال الضحاك : ينادون بكفرهم ، وقبح أعمالهم بأقبح أسمائهم من بعد حتى يسمع ذلك أهل الموقف ، ويفضحوا على روءس الخلائق ، وتعظم السمعة عليهم ، ويجل المصاب ، ويكون من أعظم توبيخ [٢٠٩] ويفهم من دلالة الخطاب أن الذين آمنوا ينادون بما هيئوا له من القبول من مكان قريب ، وفرق بين الندائين ، فهذا نداء إشادة وتكريم ، وذاك نداء ذم وتشنيع ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [٢١٠] .

([٢٠٦]) ، ([٢٠٧]) ، ([٢٠٨]) الآيات على الترتيب: غافر ١١ ، الزخرف ٧٧ ، الأعراف ٥٠ .

([٢٠٩]) المحرر الوجيز ١٩٤/١٣ ، والبحر المحيط ٤٨١/٧ .

([٢١٠]) غافر ١٠ .

المبحث الثالث

شفاء ما يخرج من بطون النحل من شراب للناس بإذن الله

وموضعه قوله تعالى مخاطباً النحل: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢١١) .

هذه الآية جاءت ضمن آيات سيقت لبيان دلائل قدرته ، وعجائب صنعته تعالى، للتأكيد على أنه الواحد الذى ليس كمثله شئ ، وأنه لا ينبغى أن يكون له شريك ، وأن الألوهية لا تصلح إلا له،فبعد أن ذكر دلائل قدرته تعالى فى المطر والنبات والحيوان(٢١٢) أعقب ذلك ببيان قدرته فى إلهامه لهذه الدواب الضعيفة الخلقة (النحل) فى اتخاذها البيوت التى تنحت فى الجبال والشجر لتأوى إليها إذا لم يكن لها أرباب ، وإلا فتتخذ ما يعرشونه – أى يبنونه – لها ، قال تعالى ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ ، ثم أذن لها إذناً قدرياً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التى ذللها لها ، وإمعاناً فى بيان دلائل قدرته يخبر

---

(٢١١) النحل ٦٩ .

(٢١٢) حيث قال تعالى ﴿ وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ * وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل الآيات ٦٥ : ٦٧]

أنه بقدرته يخرج من بطون هذه الدواب شراباً مختلف الألوان ، وتعديداً للنعم يخبر أن هذا الشراب " فيه شفاء للناس " ويختم الآيات بأن أمر النحل هذا فيه عظة وعبرة لمن يتدبر ويتفكر .

قوله ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ [٢١٣] يعنى أنه سخرها لما خلقها له ، وألهمها رشدها وقدر فى أنفسها هذه الأعمال العجيبة التى يعجز عنها العقلاء من البشر [٢١٤] ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الإلهام الإلهى ، فكان شبيها بالوحى ، فلذلك قال " وأوحى ربك إلى النحل " ولما كان الوحى شيئاً خفيا وضّحه بقوله " أن اتخذى " [٢١٥] من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون " [٢١٦] .

([٢١٣]) النحل: جمع نحلة وهى دابة أصغر من الجندب ، ويقع على الذكر والأنثى ، والنحل مؤنثة فى لغة الحجاز ، ولذلك قال " اتخذى " وقيل: التأنيث على المعنى ، أو لكون النحل جمعاً ، وسميت نحلاً ؛ لأن الله تعالى نحل الناس العسل بواسطتها أى أعطاهم .

([٢١٤]) وذلك أن النحل تبنى بيوتا على شكل مسدس من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها عن بعض ، ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الأشكال لكان فيما بينها خلل ولما حصل المقصود ... وألهمها أيضاً أن تجعل عليها أميراً كبيراً نافذ الحكم ... يسمى يعسوب النحل يعنى ملكها ... وألهما أيضا أن تخرج من بيوتها فتدور وترعى ثم ترجع إلى بيوتها ولا تضل عنها .

([٢١٥]) أنْ فى قوله " أن اتخذى " تفسيرية ، لأن فى الإيحاء معنى القول ، ويجوز جعلها مصدرية .

([٢١٦]) وإنما كان الوحى شاملاً النوعين ، لأن النحل نوعان ، منه ما مقره الجبال ولا يتعهده أحد ، ومنه ما يكون فى بيوت الناس ويتعهد فى الخلايا ونحوها .

والإسناد فى ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ ﴾ إسناد حقيقى ، يوحى بأهمية هذا المخلوق ، وآثر التعبير بـ " ربك " لاستحضار مظهر الربوبية وإشاعة هيمنتها فى القلوب ، وفى إضافة " رب " إلى كاف المخاطب تعظيم شأن المضاف إليه ، و " إلى " هنا بمعنى اللام ، والخطاب فى " ربك " للنبى ﷺ ويشمل كل فرد من الناس ممن له عقل يستدل به على قدرة الله تعالى ، و " النحل " قرأ يحيى بن وثاب بفتح الحاء ، وسمى نحلاً لأن الله سبحانه نحله العسل [٢١٧] ، و " أن " تفسيرية ، ويضعف كونها مصدرية وصلها بالأمر ، فلو قدرت مصدرية لفات معنى الأمر و " من " فى الجميع بيانية أو للتبعيض ؛ لأنها لا تبنى فى كل جبل ، وكل شجر ، وكل ما يعرش ولا فى كل مكان منها ، و (بيوتا) بضم الباء أو كسرها لأجل الياء ، واختلف فى المراد بها ، فقيل: الكُوى التى فى الجبال ، ومتجوف الأشجار والخلايا ، وقيل: البيوت المسدسة التى تبنيها هى ، فالتنكير للنوعية ، وسمى ما تبنيه لتتعسل فيه بيتاً ؛ تشبيهاً ببناء الإنسان ، لما فيه من حسن الصنعة ، وصحة القسمة التى لا يقوى عليها أحذق المهندسين إلا بآلات وأنظار دقيقة [٢١٨] ، ثم جاء العطف لبيان نوع آخر من الإلهامات للنحل ، وآثر من أدواته (ثم) ؛ لأنها تقتضى المهلة والتراخى بين الاتخاذ والأكل ، فقوله (كلى) معطوف على (اتخذى) أمر معطوف على أمر ، أى بعد أن تتخذى ... اقصدى أكل الثمرات ، ولا يبعد أن

([٢١٧]) فتح القدير ١٦٩/٣ ، و " أن اتخذى " مصدر مؤول فى محل نصب مفعول للفعل (أوحى) الذى يتضمن معنى ألهم ، أو منصوب على نزع الخافض .

([٢١٨]) تفسير البيضاوى ٣٤٨/٥ .

يؤتى الله النحل العقل ، فقد أعطاه النمل ، وأعطى الجبل الفهم حتى يسبح [٢١٩] و (من) للتبعيض ، أى كلى جزءاً أو شيئاً ... وذلك أنها إنما تأكل النوار من الأشجار [٢٢٠] و (كل) عام مخصوص ، أى المعتادة لا كلها ، وقال الزمشخرى : (أى ابنى البيوت ثم كلى من كل ثمرة تشتهيها) [٢٢١] ، وقيل (كل) هنا ليست للعموم [٢٢٢] ، بل هى كالتى فى قوله ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [٢٢٣] ، فهى تدل على الكثرة وهو استعمال ورد فى القرآن الكريم ، والكلام العربى الفصيح [٢٢٤] ، وأصله مجاز لجعل الكثير من أفراد شئ مشابهاً لمجموع

([٢١٩]) قال تعالى: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ... ﴾ [النمل ١٨] ، وقال ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ [الأنبياء ٧٩] .

([٢٢٠]) وقال الرازى: (من ههنا للتبعيض أو لابتداء الغاية ، ورأيت فى كتب الطب أنه تعالى دبر هذا العالم على وجه ، وهو أنه يحدث فى الهواء طل لطيف فى الليالى ويقع ذلك الطل على أوراق الأشجار ... وألهم الله النحل أن تلتقط تلك الذرات من الأزهار ، وأوراق الأشجار بأفواهها وتأكلها وتغذى بها ، فإذا شبعت التقطت بأفواهها مرة أخرى شيئاً من تلك الأجزاء وذهبت بها إلى بيوتها ووضعتها هناك ... فذاك هو العسل) تفسير الرازى ٧١/٢٠ .

([٢٢١]) الكشاف ٣٣٥/٢ .

([٢٢٢]) قال صاحب القاموس: (وقد جاء استعمال " كل " بمعنى بعض) ونراه قد جازف فى قوله " بمعنى بعض " وكان الأصوب أن يقول: بمعنى كثير .

([٢٢٣]) أى كل شئ أمرت بتدميره ، فخرج ما لم تؤمر به كالجبال ، فإن الريح لم تدمرها .

([٢٢٤]) قال تعالى ﴿ وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ [يونس ٩٧] ، وقوله ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ [الأنعام ٢٥] ، وقال امرؤ القيس:

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

عموم أفراده ، ، ثم كثر ذلك حتى ساوى الحقيقة ، فصار معنى من معانى " كل " لا يحتاج استعماله إلى قرينة ، ولا إلى اعتبار تشبيه العدد الكثير من أفراد الجنس بعموم جميع أفراده ، حتى إنه يرد فيما لا يتصور فيه عموم أفراد كقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ فإن الآيات لا يتصور لها عدد يحاط به [٢٢٥] وبين (كلى – كل) التجنيس المغاير ، وهو مما يزيد النظم الكريم بهجة [٢٢٦] . وهو من التجنيس غير التام .

وقوله (من كل الثمرات) [٢٢٧] أى التى تشتهينها ؛ لأن من الثمرات ما لا تأكله، فـ (أل) للاستغراق العرفى ، تقول: جمع الأمير العلماء والصاغة ، تريد ما يتعارف له منهم ، لا علماء الدنيا وصاغتها كلهم ، فليس المراد أنها تأكل من ثمر الدنيا كلها[٢٢٨] ، أو

وقال النابغة:

بها كل ذيالك وخنساء ترعوى إلى كل رجافف من الرمل فارد

وقال عنترة:

جاءت عليه كل بكر حرة فتركن كل قرارة كالدرهم

(٢٢٥) ينظر: التحرير والتنوير ٢٠٧/١٤، والآية من سورة البقرة ١٤٥ .

(٢٢٦) ينظر: البديع فى نقد الشعر ، ص ٣٠ ، كتاب الصناعتين ٣٥٥ .

(٢٢٧) الثمرات : جمع ثمرة محركة ، وهى حمل الشجر ، وتقال الثمرة للشجرة أيضاً ، قيل: وهو المناسب هنا ، إذ التخصيص بحمل الشجر خلاف الواقع لعموم أكلها للأوراق والأزهار والثمار ، وتعقب بأن لا يخفى أن إطلاق الثمرة على الشجرة مجاز غير معروف ، وكونها تأكل من غيرها غير معلوم (تفسير الألوسى ١٨٢/١٤) .

(٢٢٨) ينظر: تفسير البحر المحيط ٥١٢/٥ .

المراد أنواع الثمرات وألوانها كالحلو والمر ، والأصفر والأبيض والأحمر، أو المراد أنه أبيح لك كل ثمرة ، فكلى ما شئت .

وجاءت جملة إنشائية أخرى مصدرة بالفاء ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ وتعددت أقوال العلماء فى معناها ، وتبع ذلك اختلاف معنى حرف العطف ، فظاهر العطف بالفاء أنه بعقيب الأكل ، أى بعد أكلك اسكلى ، ويكون المراد بـ (سبل ربك) الطرق التى ألهمك وأفهمك فى عمل العسل ، أو اقصدى أكل الثمرات فاسلكى فى طلبها من مظانها سبل ربك التى جعلها لطلب المرعى ، فيكون المراد بـ(سبل ربك) الطرق التى تسلكها النحلة فى خروجها من بيتها للغذاء ، ويمكن اعتبار الفاء واقعة فى جواب شرط مقدر ، أى إذا أكلتها فاسلكى ، وعلى هذا الوجه فالكلام يحتمل معنيين ، الأول: إذا أكلت الثمار فى المواضع البعيدة من بيوتك فاسلكى راجعة إلى بيوتك سبل ربك ، لا تضلين عنها ولو بعد المرعى ، فالمراد من السبل الطرق ، وأضافها إليه سبحانه ؛ لأنه خالقها وموجودها ، وعلى المعانى السابقة يكون (ذللاً) حالاً من السبل [٢٢٩] ، أى اسلكى سبل ربك حال كونها ممهددة لك ، لا عسر فى سلوكها عليك ، وإن كانت صعبة على غيرك ، وفى ذلك تكريم للنحل ، وإشادة لها لما سينتج عنها من شراب صفته ما ذكره القرآن .

([٢٢٩]) والأصل : " اسلكى سبل ربك الذلل ، فالذلل صفة لسبل ، فأسقطت أل فنصب على الحال .

والآخر: إذا أكلت الثمار فاسلكى ، بمعنى أدخلى – بفتح الهمزة وكسر الخاء – ما أكلت من الثمرات طرق ربك التى خلقها طريقا للغذاء ، وهى الأجواف والعروق التى يجعل فيها المرّ وغيره عسلاً ، لأن لها عملاً يبنى الله عليه ذلك ، فلا يشكل بأن لا اختيار لها فى خلق الله تعالى ذلك ، وعلى هذا المعنى يكون (ذللاً) حالاً من الضمير العائد على النحلة فى (فاسلكى) أى: فاسلكى سبل ربك حال كونك منقادة لما يراد منك ، مطيعة لما سخرك الله له من أمور تدل على قدرته وحكمته ، وفى ذلك إشارة إلى وجوب الائتمار بأمره سبحانه ، والانصياع التام له ، وفيه إشارة لقوله ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ [٢٣٠] و (سبل ربك) أى مسالكه التى يحيل فيها بقدرته النوار المرّ عسلا من أجوافك ومنافذ مأكلك، وأضافها إليه ؛ لأنه خالقها وملهم النحل أن تسلكه فيها [٢٣١] .

ثم نلحظ ، عدول الكلام من الإنشاء إلى الخبر بقوله (يخرج من بطونها شراب) فهى جملة خبرية مستأنفة ، عدل بها من خطاب النحل إلى خطاب الناس ، تعديداً للنعم وتعجيباً لكل سامع ، وتنبيها على مواطن العظات والعبر الدالة على وحدانيته تعالى ، وقدرته وعجيب صنعه فى خلقه ، وإرشاداً إلى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا المخلوق الضعيف ، فالكلام مستأنف على طريق الالتفات من

([٢٣٠]) الأحزاب ٧٢ .

([٢٣١]) ينظر: فتح القدير٣/١٦٩ ، تفسير اطفيش إباضى ١٢٨/٥ .

الخطاب إلى الغيبة ، إذ لم يقل: وأخرجى من بطونك شراباً ، وحوّل الكلام عنها إلى الناس ، لأنه محل الإنعام عليهم ، والمقصود من خلق النحل وإلهامه ، و (يخرج) مضارع دال على التجدد والحدوث ، فقد أمر النحل أن تتخذ بيوتا ، وأن تأكل ما تشتهيه من الثمار التى يحيلها الله بقدرته عسلاً ، وهى حين تنصاع لأمره تعالى ، يخرج هذا المأكول عسلاً ويتكرر ذلك طوال عمرها ، و (من) بيانية [٢٣٢] وجمهور المفسرين على أن العسل يخرج من أفواه النحل ، والأظهر أنه يخرج من بطونها عن طريق أفواهها كأنه لعاب (قال " من بطونها " مع أنها تلقيه من أفوهها ؛ لأن إحالة الأطعمة لا تكون إلا في البطن ، فيخرج كالريق الدائم الذي يخرج من فم ابن آدم) [٢٣٣] ولا يتم صلاحه إلا بحمى أنفاسها . [٢٣٤] وسمي ما يخرج من بطونها (شراباً وإن كان مطعوماً ؛ لأنه يصرف في الأشربة أكثر من تصريفه في الأطعمة ؛ ولأنه مائع وذلك بالشرابية أخص، كما أن الجامد أخص بالطعامية) [٢٣٥]

وقال الجاحظ : (العسل ليس بشراب وإنما هو شيئ يحول بالماء شراباً ... فسماه كما ترى شرابا إذا كان يجئ منه

([٢٣٢]) ويصح جعلها للمجاوزة بمعنى عن ، وقيل فى ذلك : إنه يخرج من أسفلها ، وعلى آية حال فهو يخرج ولا يدرى من فيها أو من أسفلها ، ولكن لا يتم صلاحه إلا بحمى أنفاسها .

([٢٣٣]) تفسير زاد المسير ١٠٨/٤

([٢٣٤]) تفسير القرطبي ١٣٥/١٠ .

([٢٣٥]) أحكام القرآن لابن العربي ٥/ ١٧٤

الشراب)[٢٣٦] ونلحظ أنه قدم الجار والمجرور " من بطونها " على الفاعل " شراب " وذلك للتشويق إلى ذكر المؤخر ، فإن تأخيره يجعل النفس متشوقة ومترقبة له ، ولذا فإنه عندما يأتي يقع فيها موقعاً حسناً ويتمكن فيها فضل تمكن .

وقد ذكر الجاحظ طَعْنَ بعض الملحدين في هذه الآية ، بأن العسل تلتقطه النحلة من الأشجار ولا دخل للنحلة في بطن قط [٢٣٧] وردَّ عليهم بأنه لو كان العسل شيئاً (يلتقط من الأشجار كالصمغ ، وما يتولد من طباع الأنداء والأجواء والأشجار إذا تمازجت لما كان في ذلك عجب إلا بمقدار ما نجده في أمور كثيرة ... وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامه وهذيلاً وضواحي كنانة ، وهؤلاء أصحاب العسل ، والأعراب أعرف بكل صمغة سائلة ، وعسلة ساقطة فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب أو طعن عليه من هذه الحجة) [٢٣٨]

ثم نلحظ أن النظم القرآني أتبع قوله " شراب " بذكر صفتين له ﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ فالحديث عن العسل هنا يتلخص في

([٢٣٦]) الحيوان للجاحظ ١/ ٤٧٨

([٢٣٧]) يقول : (وقد طعن ناس من الملحدين ، وبعض من لاعلم له بوجوه اللغة وتوسع العرب في لغتها وفهم بعضها عن بعض بالإشارة والوحي ، فقالوا : قد علمنا أن الشمع شئ تنقله النحل مما يسقط على الشجر ، فتبنى بيوت العسل منه ، ثم تنقل من الأشجار العسل الساقط عليها ، كما يسقط الترنجين والمن وغير ذلك ، إلا أن مواضع الشمع وأبدانه خفي ، وكذلك العسل أخفى ، فليس العسل بقئ ولا رجيع ، ولا دخل للنحلة في بطن قط) .

([٢٣٨]) الحيوان للجاحظ ١/ ٤٧٨

بيان طبيعته ولونه وأهميته ، فمن حيث طبيعته هو شراب ؛ لأنه مما يشرب ، تخرجه النحل من بطونها بعد أن تسلكه في الأجواف والعروق التي يجعل فيها عسلاً بقدرته تعالى ، وقد تكفل الوصف الأول بذكر لون العسل (مختلف ألوانه) ومختلف : مبتدأ ، وألوانه : فاعل سد مسد الخبر فالجملة اسمية دالة على ثبات معناها ، فاختلاف عسل النحل في لونه أمر ثابت لا يختلف عليه اثنان ، فبعضه أبيض ، وبعضه أحمر وبعضه أصفر ... وهذا الاختلاف يرجع إما إلى اختلاف أغذيتها ، وإما إلى اختلاف سن النحل ، وإما إلى اختلاف فصول السنة التي يؤخذ فيها العسل ، وإما إلى اختلاف ذوات النحل وألوانها [٢٣٩] وهذا الاختلاف (دليل على أن القدرة نوعته بحسب تنويع الغذاء ، وإن كان لا يخرج عن صفته ، ولا يجئ إلا من جنسه ، ولكن يؤثر بعض التأثير فيه ليدل عليه ، ويغيره الله ؛ لتتبين قدرته في التصريف بين الأمرين ، كما قال تعالى ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾) [٢٤٠] .

وتكفل الوصف الثاني ببيان أهميته (فيه شفاء للناس) وسقط العاطف بين الوصفين والموصوف لشبه العطف فيها – لو عطفت – بعطف الشيء على نفسه ، فالعطف لا يكون بين الصفة والموصوف ألبتة ، كما سقط العاطف أيضا بين الصفتين للدلالة على أنه بألوانه المختلفة فيه شفاء ، والضمير في (فيه) يعود إما على

([٢٣٩]) ينظر : تفسير أبو السعود ١٢٦/٥ ، وفتح القدير ١٦٩/٣ .

([٢٤٠]) أحكام القرآن لابن العربي ١٧٥/٥ والآية من سورة الرعد ٤

" شراب " وهو المستخرج من بطون النحل وهو العسل ، لأنه من جملة الأدوية النافعة، وقل معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل ، قال القرطبي (وهذا القول بين .. ؛ لأن أكثر الأشربة والمعجونات التي يتعالج بها أصلها من العسل) [٢٤١] وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض ، كما أن كل دواء كذلك ، وتنكيره لتعظيم الشفاء الذي فيه ، أو لأن فيه بعض الشفاء ؛ لأن النكرة في الإثبات تخص [٢٤٢] وإما يعود على القرآن [٢٤٣] ، والمعنى : فيما قصصنا عليكم في هذا القرآن من الآيات والبراهين شفاء للناس ، أى البيان للناس ، وهذا القول استحسنه القرطبى ، وقال ابن عربي : (من قال إنه القرآن بعيد ، ما أراه يصح عنهم ، ولو صح نقلا لم يصح عقلاً فإن مساق الكلام كله للعسل ليس للقرآن فيه ذكر) [٢٤٤] وقال ابن كثير : (هذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر هنا من سياق الآية، فإن الآية إنما ذكر فيها العسل)[٢٤٥]، وهذا القول وإن كان صحيحاً في ذاته إلا أن السياق لا يدل عليه ؛ لأن الآية تتحدث

([٢٤١]) تفسير القرطبي ١٣٦/١٠ .

([٢٤٢]) ينظر : الكشاف ٣٣٦/٢ ، قال أبو السعود : (" وفيه شفاء للناس " إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية ، أو مع غيره كما في سائر الأمراض ، إذ قلما يكون معجون لا يكون فيه عسل مع أن التنكير فيه مشعر بالتبعيضة ، ويجوز كونه للتفخيم) : تفسير أبو السعود ١٢٦/٥ .

([٢٤٣]) وهذا الاختلاف فيه إشارة إلى حديثه ﷺ: (عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن) [سنن ابن ماجة حديث رقم ٣٤٤٣] .

([٢٤٤]) تفسير القرطبي ١٣٦/١٠ ، والبحر المحيط ٥١٣/٥ .

([٢٤٥]) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٤ .

عما يخرج من بطون النحل وهو العسل ، ولا وجه للعدول عن الظاهر ، ومخالفة المرجع الواضح .

وقوله (للناس) عموم التعريف لا يقتضى العموم الشمولى لكل فرد ، وفيه دليل على كمال عناية الله تعالى وتمام لطفه بعباده ، وأنه الذي لا ينبغي أن يعبد غيره ، أو أن يدعى إله سواه ، وفيه حث لهم على عبادته ، فإن من يصنع هذا الرزق لهم يستحق أن يعبد ، و﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ دليل على جواز التعالج بشرب الدواء وغير ذلك[٢٤٦] ، وقوله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تذييل قصد به الحض على التفكير والاعتبار في عجيب أمر النحل ، ليعلموا أن الإله الحق هو الذي أودعها علماً بذلك ، وفطنها كما أعطى أولى العقول عقولهم ، وهى جملة مستأنفة ، والتأكيد فيها للدلالة على أن من يفكر في ذلك يعلم قطعاً بوحدانية الخالق وقدرته فيفرد بالعبادة ، وفصل بين " إن " واللام لأنه لا يجمع بينهما ، و" ذلك " إشارة إلى ما ذكر من أمر النحل ، وفيه من الإيجاز ما لا يخفى [٢٤٧] ، وجاء بـ " إن " من غير ذكر الفاء دالا على اتصال هذه الجملة بما قبلها مندرجة تحتها لا تباين بينهما ، ومجئ الفاء دليل الانفصال فيبطله ، و (الآية في

---

(٢٤٦) قال ﷺ : (إن كان فى شئ من أدويتكم أو يكون فى شئ من أدويتكم خير ففى شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لذعة بنار توافق الدواء وما أحب أن أكتوى) [صحيح البخارى حديث رقم ٥٢٥١ ، باب : الدواء بالعسل] .

(٢٤٧) فالأصل : إن في إلهام النحل باتخاذها البيوت العجيبة ، وإدارتها لشئون حياتها بدقة متناهية ، وسلوكها الطرق التي جعلها الله مذللة لها في ذهابها وإيابها أو انصياعها لأمر ربها ...وفي خروج العسل من بطونها لعبرة .

اللغة تطلق على ثلاثة معان : العلامة الفاصلة ، والأعجوبة الحاصلة ، والبلية النازلة... [٢٤٨] ويجمع بين هذه المعاني الثلاثة أنه قيل آية لدلالتها وفضلها وإبانتها) [٢٤٩] .

والمعنى : إن في أمر النحل هذا لعظة وعبرة وعلامة تهدي إلى الرشد وإلى الاعتبار وإلى وحدانيتنا وقدرتنا ، وهذا إنما يتأتى (لقوم يتفكرون) وقوم : هنا ليست مختصة بالرجال ، بل تعم كل من يتأتى منه التفكر من الرجال والنساء ، ونكر للتعظيم وللدلالة على أن التفكر من سجاياهم ، فإن من يعتبر بهذه الآية وغيرها يكون التفكر من صفته القومية ، وفيه تعريض بأن من لم يتعظ فهو ليس من أهل التفكر ، ومن ثم فهو لا ينتفع بهذه الآيات ، وأفرد الآية ؛ لأن الكلام عن أمر واحد وهو أمر النحل ، أو أن المراد : إن في كل أمر من تلك الأمور ، أو أن الآية اسم جنس ، وقوله (يتفكرون) التفكير : التأمل والنظر ، وهو تفعيل مشتق من الفكر ، والتفكر: إعمال الفكر أى الخاطر العقلى للاستفادة منه ، وهو التأمل فى الدلالة العقلية (واختير وصف التفكير هنا ؛ لأن الاعتبار بتفصيل ما أجملته الآية فى نظام النحل محتاج إلى إعمال فكر دقيق ونظر عميق) [٢٥٠] ، وإن أهل السعادة وأرباب السيادة إذا تأملوا فى هذه الأمور المسندة إلى ما لا يعقل ولا يفهم وهم من أهل القول الذى يشرف به الإنسان ويكرم

([٢٤٨]) فمن الأول قوله ﴿ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً ﴾ ومن الثانى " إن في ذلك لأية " ومن الثالث:جعل الأمير فلانا اليوم آية.

([٢٤٩]) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٢٦١/١٠

([٢٥٠]) التحرير والتنوير ٢١٠/١٥ .

ربما أدى بهم فكرهم إلى أنهم الأولى بـــأن يســـتجيبوا لأوامـــر الله ونواهيه ، وهذا هو المقصد .

الخاتمــة

وبعد هذه النظرات التحليلية البلاغية التـــي حاولـــت مـــن خلالها فقه آيات الشفاء يمكن التنبيه إلى الحقائق التالية :

في ستة مواضع تحدث القرآن عن الشفاء ، ثلاثة منها كـــان الحديث عن شفاء القرآن لما في الصدور وهو القلوب ، وموضـــعان جاء الشفاء فيهما فعلاً مضارعاً مسنداً إلى الله تعالى ، وموضع كان الحديث فيه عن شفاء ما يخرج من بطون النحل من شـــراب وهـــو العسل للناس ، ونلحظ أن لفظ " شفاء " جاء نكرة في أربعة منهـــا ، وفي موضعين كان التعبير بالمضارع ، وفي هـــذا دلالـــة علـــى أن الشفاء في مواقعه من الآيات ثابت ودائم ، وأنه يتجدد بتجدد موجبه ، وقد أظهرت الآيات أن شفاء القرآن لما في الصدور إنمـــا يتحقـــق للمؤمنين الذين صح إيمانهم ، وقوى يقينهم، وكذا ما يخـــرج مـــن بطون النحل كما تظهر الآيات أن الله وحده يشفي سقم من يشاء من عباده، فهو الشافي ، ولا شفاء إلا شفاؤه .

كشف البحث عن فائدة التنكير في " شفاء – والـــذي تكـــرر أربع مرات – ورحمة ، وهدى ، وموعظـــة ، وقـــوم ... " وأنهـــا التفخيم والتعظيم لهذه الأمور ، كما أظهر البحث التلاؤم بين الغرض المؤم وأساليب التعبير ، والتي تتطلب اليقظة وتغري بالتتبع للوقوف على أسرار هذا البيان ، وبهذا المنهج يلمح الـــدارس أدق وأســـمى آيات الإعجاز ، وهذا المنهج هو ما دونـــه وأقـــره شـــيخ البلاغـــة والبلاغين الإمام عبدالقاهر في نظرية النظم ، وأخيراً عرض البحث للقراءات القرآنيه التي وردت في بعض الكلمات مثل (يشف ونشف

، وأأعجمي وأعجمي ، ونُنَزِّل ونُنْزِل ويُنْزِل) والأسرار البلاغية الكامنة فيها . هذا وبالله التوفيق .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أهـم المصـادر والمراجـع

*- القرآن الكريم . تنزيل رب العالمين

١. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ط حجازي

٢. أحكام القرآن لابن العربي ط دار الجيل – بيروت – لبنان .

٣. بحر العلوم للسـمرقندى ط دار الكتـب العلميـة . بيـروت ١٩٩٣م

٤. البحر المديد لابن المهدي تح/ محمد أبو الفضل ط المكتبـة العصرية ز بيروت

٥. البرهان للزركشي تح / محمد أبو الفضل ط المكتبة العصرية . بيروت .

٦. تفسير أبي السعود ط دار إحيـاء التـراث العربـي بيـروت ١٩٩٠

٧. تفسير الألوسي ط دار إحياء التراث العربي . بيروت

٨. تفسير البحر المحيط لأبي حيان ط دار الكتب العلمية بيـروت ١٩٩٣م .

٩. تفسير البيضاوي ط دار صادر بيروت

١٠. تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ط الدار التونسية للنشر

١١. تفسير الخازن ط دار المعرفة . بيروت . لبنان

١٢. تفسير الرازي ط المطبعة البهية ط أولى ١٣٥٧ه ١٩٣٨ م

١٣. تفسير الطبري ط دار الفكر . بيروت ١٤١٥هـ ١٩٩٥ م

١٤. تفسير القرطبي ط دار الحديث ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م

١٥. تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط دار الحديث ١٤١٠هـ ١٩٩٠م
١٦. تفسير المحرر الوجيز لابن عطية . مكتبة ابن تيمية . القاهرة .
١٧. تفسير النيسابوري تح / إبراهيم عطوه عوض ط الحلبي .
١٨. الجني الداني للمرادى تح / قباوة وغيره ط أولى دار الكتب . بيروت
١٩. الحيوان للجاحظ ط ثالثة ١٩٦٩م المجمع العلمي بيروت
٢٠. سنن ابن ماجة تح / فؤاد عبد الباقي ط دار إحياء التراث ١٩٧٥م
٢١. شروح التلخيص ط دار السرور . بيروت
٢٢. شعب الإيمان للبيهقي [الحاسب الآلي]
٢٣. صحيح البخاري ، ط دار التقوى للتراث .
٢٤. العمدة لابن رشيق تح/ محي الدين عبد الحميد ط دار الجيل بيروت
٢٥. فتح الباري لابن حجر ط أولى ١٩٨٦م دار الريان .
٢٦. فتح القدير للشوكاني ت ١٢٥٠هـ مطبعة الحلبي ١٣٥٠هـ
٢٧. الفتوحات الإلهية للجمل ط عيسى البابي الحلبي وشركاه
٢٨. فيض القدير للمناوي ط دار الحديث القاهرة
٢٩. في ظلال القرآن لسيد قطب ط دار الشروق
٣٠. كتاب أسرار البلاغة للإمام عبدالقاهر تح / محمود شاكر ط المدني .

٣١. كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني في تح / محمود شاكر ط المدني .
٣٢. كتاب الضاعتين لأبي هلال العسكري تح/ قميحة ط دار الكتب العلمية .
٣٣. كتاب الطراز للعلوي تح / عبد السلام هارون ط أولى . دار الكتب
٣٤. الكشاف للزمخشري ط دار عالم المعرفة .
٣٥. المثل السائر لابن الأثير ط المكتبة العصرية . بيروت
٣٦. مغنى اللبيب لابن هشام ط الحلبي . القاهرة .
٣٧. مفتاح العلوم للسكاكي تح / هنداوي ط دار الكتب العلمية . بيروت
٣٨. من روائع الإعجاز لعز الدين على السيد ط دار الطباعة المحمدية ١٩٧٧م .
٣٩. النبأ العظيم لمحمد عبدالله دراز ط دار القلم . الكويت
٤٠. نظم الدرر للبقاعي تح / عبدالرازق غالب ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥هـ
٤١. نقد الشعر لقدامة بن جعفر تح/ خفاجي ط دار الكتب العلمية . بيروت

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحة
المقدمة	
المبحث الأول: شفاء الله تعالى للمؤمنين	
الموضع الأول: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾	
الموضع الثانى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾	
المبحث الثانى: شفاء القرآن لقلوب المؤمنين	
الموضع الأول: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً ﴾	
الموضع الثانى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾	
الموضع الثالث: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾	
المبحث الثالث: شفاء ما يخرج من بطون النحل من شراب للناس	
موضعه ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾	

الموضـــــــــوع	الصفحة
الخاتمة	
المصادر والمراجع	
فهرس الموضوعات	